الإمام الجليل

محمد أبو زهرة

٥٤

زهرة التفاسير

دار الفكر العربي
١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦ م

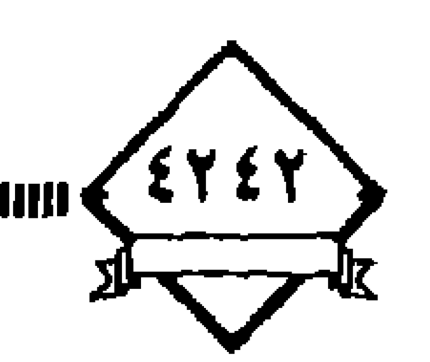
إهــــــداء٢٠٠٦
المرحوم / علي حسن عبد الكافي
الإسكندرية

﴿الْكَافِرُونَ﴾ الضمير فى (هم) يعود إلى الذين ﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا﴾ وهم بعض أهل الجحود وقوله تعالى: ﴿وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ فيه تعريف الطرفين، وهو يفيد القصر، أى أن أكثر هؤلاء لا يكونون إلا كافرين، فإن الكفر يكون بإنكار الحق، وعدم الإقرار به كما فى قوله تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ... (١٤)﴾ [النمل].

بعد ذلك بين الله تعالى حالهم بعد البعث فقال:

﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤)﴾.

الجملة موصولة بما قبلها، على جزاء للكفر، ومعرفة النعم ثم إنكارها، ﴿وَيَوْمَ﴾ منصوب لفعل محذوف أى اذكر اليوم، وذكر اليوم هو ذكر ما يجرى فيه من أحداث وبعث ونشور، وحساب وعقاب وثواب، فإذا كانوا ينكرون النعمة، فليذكروا اليوم وما يجرى فيه، وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِن كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا﴾ والشهيد هو الرسول الذى بعث لها داعيا إلى الحق معرفا به نذيرا وبشيرا وهاديا إلى الله بإذنه وذكر بعث الرسول، ولم يذكر بعث الأمة لأن بعث الشهيد الذى يشهد لها أو عليها هو بعث للأمة، فكان بعث الرسول عليه الدلالة صراحة، وبعث الأمة كان بدلالة الاقتضاء، أو كان ذكر بعث الرسول صراحة لبيان مقام الرسول عند الله، ولبيان أن الرسول الذى يدعوكم هو الذى يشهد لكم وعليكم وعنكم يوم الحساب فأجيبوا داعى الله إذ يدعوكم له لتنجوا من عذاب الله تعالى، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ هنا الدالة على التعقيب والتراخى للدلالة على أنهم بعد شهادة النبيين طلبوا أن يعتذروا، فلم يقبل منهم، ولمقام هذا الكلام المطوى كان العطف بـ﴿ثُمَّ﴾ الدالة على التراخى، فلا يؤذن لهم لأنه لا حاجة إلى مخاصمة كما هو شأنهم فى الدنيا، بل إن الله عليم بهم، وشهادة أنبيائهم فيهم صادقة غير مكذوبة كما كانوا يتوهمون فى الدنيا.



وكما أنهم لا يمكنون من القول والمخاصمة؛ لأن القيامة ليست مثل الدنيا مغالبة بالبيان، كذلك لا يستعتبون، أى لا يمكنون من الاستعتاب، وهو الاسترضاء، إذ الاستعتاب هو طلب العتب، وهى الرضا، فهم لا يمكنون منها، لأنه قد انتهى وقت التكليف والإرضاء ولم يبق إلا الجزاء.

وفى قوله تعالى: ﴿لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا﴾ فيه إظهار فى موضع الإضمار، وذلك لأن الموصول جاء فى موضع الضمير، وذلك للإشارة إلى أن السبب فى عدم الإذن لهم بالاعتذار، وأنهم لا يمكنون من الاستعتاب، هو كفرهم الذى عاندوا به النبيين وقد قال تعالى فى أحوالهم يوم القيامة:

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ (٨٥)﴾.

﴿وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ﴾ جواب (إذا) محذوف يذهب فيه العقل كل مذهب، هالهم الأمر، وأحسوا بمقت الله تعالى عليه، وحاولوا طلب التخفيف، وقد أجابهم الله تعالى بقوله: ﴿فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ﴾، فالفاء عاطفة على محذوف مأخوذ من معنى الخوف والرغبة فى التخفيف أو التأجيل عسى أن يعملوا عملا صالحا ينجيهم من ذلك العذاب العتيد، الذى كانوا يترقبونه، فالفاء هنا عاطفة على جواب الشرط المحذوف وليس ما بعدها جواب الشرط؛ لأن الفاء لا تقع على لا النافية، إنما تكون بما النافية.

حالهم تدعوهم إلى طلب التخفيف إذ يرون عذابًا لم يكن فى حسبانهم فتوجب طلب التخفيف أو التأجيل، فلا يخفف عنهم عذابهم، ولا يؤجلون، لأنهم انتقلوا من دار الابتلاء إلى دار الجزاء، فمعنى (لا ينظرون)، أى لا يؤجلون.

وعبر سبحانه بالذين ظلموا؛ لأنهم أشركوا، وإن الشرك لظلم عظيم، ولأنهم ظلموا أنفسهم بكفرهم وعنادهم، وظلموا عقولهم وإدراكهم، وإذا أشركوا مع الله حجارة لا تنفع ولا تضر، ولا تسمع ولا تبصر وظلموا المؤمنين بإيذائهم

وفسقهم فى دينهم وظلموا الرسول باستهزائهم به، وتسبب هذا التكاثر كان العذاب الهائل الذى لم يعرفوا له حدا ولا نهاية.

هذه حالهم، فما هى حال الأوثان التى يعبدونها لتقربهم إلى الله زلفى، أو لتكون شفعاء لهم، قال الله تعالى عنها فى ذلك اليوم الذى لا تنفع فيه شفاعة الشافعين.

﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِن دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ (٨٦) ﴾.

هذه حال الذين ظلموا الناس وظلموا أنفسهم وعقولهم بعبادة الأحجار مع الله تعالى، فما هى حالهم من هذه الأنداد التى اتخذوها آلهة من دون الله، أجاب الله تعالى عن ذلك، فقال: **﴿ وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ ﴾** بالإضافة هنا لملابسة عبادتها شركاء لله، فهى إضافة لأدنى ملابسة، إذا رأى الذين أشركوا ما عبدوه من دونه ظنوا فى ذلك فرجا؛ إذ يتحول جزء من العذاب الذى نزل بهم إليها، وكانوا بذلك ضالين فى الآخرة، كما كانوا ضالين به فى الدنيا، قالوا للأنبياء الذين شاهدوا الله: هؤلاء شركاؤنا الذين كنا ندعوهم من دون الله. ندعو معناها نعبد، أو نلجأ بأن كنا نحسب ما يقينا عن الله، وكأنهم بهذا يحسبون أنها تكون شريكة فى العذاب، فتكون هذه الشركة مخففة ما هم فيها، وقولهم: **﴿ مِن دُونِكَ ﴾**، أى غيرك، فردوا عليهم بأنهم ليسوا شركاء فى العذاب، وإنكم أنتم الذين ارتكبتم بهواكم، ولغلبة الأوهام عليكم، فتصورتم ما ليس بحقيقة، وعليكم وحدكم وزر ما صنعتم وارتكبتم، وهذا قوله تعالى: **﴿ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ ﴾** القول هو إنكم لكاذبون، والضمير فى ألقوا يعود إلى الشركاء، أى ألقوا ذلك القول إنكم لكاذبون، والشركاء فيها أحجار وأشخاص، وملائكة، وشياطين، وكل هؤلاء ألقوا تبعة ادعاء غير الله تعالى على المشركين؛ لأن أحداً من هؤلاء الشركاء لم يدع إلى عبادته، فالأحجار لا تنطق ولا تدعو، والأشخاص الذين عبدوهم كعيسى وكالملائكة يتبرأون منهم، والشيطان، وإن قد أغواهم فهم

الذين غووا، وعليهم تبعة غوايتهم، كما قال تعالى عنه: ﴿وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِيَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلاَّ أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم مَّا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِي مِن قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٢٢)﴾ [إبراهيم] وما هو الكذب الذى أسند إليهم، وأكد ذلك التوكيد؟ الكذب فى أنهم ألقوا التبعة عن أنفسهم، وحمّلوها شركاءهم، والكذب فى تضمن قولهم أن المسئول أولئك الشركاء، وكذبهم فى زعمهم أن أولئك الشركاء أضلوهم، وإنما أضلتهم أوهامهم التى توهموها، وشهواتهم التى أركسوا فيها، حتى حسبوا أنه لا بعث ولا نشور، فهم أضلوا أنفسهم ووجد الشيطان سربا لنفوسهم من وراء هذا الضلال، و(الفاء) فى قوله ﴿فَأَلْقَوْا﴾ للترتيب والتعقيب.

وقد أكد شركاؤهم كذبهم بالجملة الاسمية، وباللام، وبإن المؤكدة، وهكذا يتبرأ منهم حتى الشياطين التى استجابوا لها، وصاروا أمام العذاب وجها لوجه.

وإذا كانوا أمام العذاب، ولا منجاة لهم فلم يبق إلا أن يستسلموا كارهين، ولذا قال تعالى:

﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُم مَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ (٨٧)﴾.

الضمير يعود على المشركين، أى أنهم بعد استسعفوا بالشركاء فلم يسعفوهم، واستصرخوا بهم فلم يصرخوهم، لم يبق إلا أن يستسلموا لله، وهذا معنى ﴿وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ﴾، وتعدى بـ (إلى) لتضمن معنى هذا السلم الاستسلام إليه سبحانه بعد طول العناد ﴿وَضَلَّ عَنْهُم﴾، أى غاب عنهم ما كانوا يفترونه من أن الشركاء تقربهم إلى الله، وأنها تكون سعفا عند الله تعالى، و(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أو مصدرية، وعلى الأول: غاب عنهم القول الذى كانوا يفترونه، وعلى الثانى: غاب افتراؤهم، ومعنى غيبة الافتراء غيبة موضوع الافتراء، إذ إن موضوع الافتراء، وهو شفعاؤهم قد صار لا حقيقة له، فكان جديرًا بأن يغيب غيبة منقطعة.

الصد عن سبيل الله ومقام الرسالة المحمدية

قال تعالى:

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ زِدْنَٰهُمْ عَذَابًا فَوْقَ ٱلْعَذَابِ بِمَا كَانُوا۟ يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ۖ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰٓؤُلَآءِ ۚ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾﴾

إن المشركين كانوا لا يكتفون بشركهم فى عصر النبى ﷺ، بل كانوا يؤذون المؤمنين ليفتنوهم عن دينهم، ويستقبلون وفود الحجيج، ليخبروهم عن النبى ﷺ وقد اقتسموا مداخل مكة ليمنعوا الناس عن تصديق النبى ﷺ، فهم لا يكتفون بشركهم، بل كانوا يصدون الناس عن الحق، وهو سبيل الله والطريق الصحيح الموصل لعبادته، فهؤلاء لهم عذابان: عذاب الشرك، وعذاب الصد عن سبيل الله، زاده الله تعالى عليهم؛ لأنهم زادوا على أنفسهم رجسا بعد رجس؛ ولذا قال تعالى:

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴿٨٨﴾﴾.

﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وهم الذين لم يؤمنوا بالرسالة المحمدية، والكفر يشمل الشرك بالله بعبادة الأوثان، وأهل الكتاب الذين لم يؤمنوا بمحمد ﷺ، وبعض من نسميهم أهل كتاب يدخلون فى الشرك من بابه، وهم الذين يعبدون المسيح، أو يقولون: إنه ابن الله، ويصفونه بالرب ويعبدون روح القدس، ويقولون الله ثالث ثلاثة، فكلمة الذين كفروا يدخل فى عمومها أهل

الكتاب كما قال تعالى: ﴿ لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنفَكِّينَ حَتَّىٰ تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ ① ﴾ [البينة] وقد ذكر الله تعالى ذلك الوصف للمشركين وأهل الكتاب؛ لأن الصد عن سبيل الله وقع من المشركين، ووقع من أهل الكتاب فى عصر تبليغ الرسالة، وهو الآن يقع على أشده من أهل الكتاب.

وقد كان صد المشركين بالأذى ينزل بالضعفاء، وبالسخرية تنزل بأهل الشرف والمروءة، وبالتضليل ما استطاعوا بالرسالة المحمدية، وشاركهم فى ذلك اليهود، وخصوصا بعد الهجرة إلى المدينة الطاهرة، وقد ذكرنا كيف كانوا يقتسمون مداخل المدينة، ليضلوا الناس عن النبى ﷺ، ومنهم أبو لهب بن عبدالمطلب عم النبى ﷺ وحفيد هاشم رأس البيت الهاشمى المجيد.

وقد قال تعالى: فى عقاب هؤلاء الصادين: ﴿ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾، أى أنهم يزاد عليهم عذاب بسبب ذلك التضليل والصد عن سبيل الله، وذلك فساد فى الأرض؛ ولذا قال سبحانه: ﴿ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ ﴾، أى بسبب فسادهم، وأى فساد أكبر من الصد عن سبيل الله، وهو سبيل الحق، وتبليغ الرسالة الإلهية.

وقد ذكر سبحانه وتعالى وقت ذلك العذاب، فقال عز من قائل:

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ⑧٩ ﴾.

﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، (يوم) منصوب بفعل محذوف معناه، واذكر يوم نبعث فى كل أمة شهيدا ﴿ مِّنْ أَنفُسِهِمْ ﴾، أى منهم، ومن أنفس قومه كما بعث النبى ﷺ فى العرب من أنفسهم، وكلمة ﴿ نَبْعَثُ ﴾ تدل على أنه يبعثه الله تعالى مع قومه شهيدا لهم أو عليهم يوم القيامة، ويذكر النبى ﷺ بأنه بعث فى كل أمة شهيدا عليهم يبلغهم فى حياته، ويشهد عليهم يوم القيامة ﴿ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَىٰ هَٰؤُلَاءِ ﴾ والجمع بين المضارع فى قوله: ﴿ وَيَوْمَ نَبْعَثُ

فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِم مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾، والماضى فى قوله تعالى: ﴿وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَىٰ هَؤُلاءِ﴾ يدل على أن البعث فى الدنيا بإرسال الرسل مبشرين، ومنذرين، والنبى ﷺ شهيد على كل الرسل؛ لأن رسالته هى الكاملة، وهى المتضمنة لكل الرسالات الإلهية كلها، فالإسلام دين الله، وهو دين النبيين أجمعين، وهو خاتم الرسالات كلها.

وتدل بهذا الجمع بين الماضى والمستقبل بأن الله تعالى يبعث مع كل أمة يوم القيامة شهيدًا عليها بأنه أدى الرسالة وشهيدا لمن آمن واتقى، وشاهدًا على من كفر وعصى.

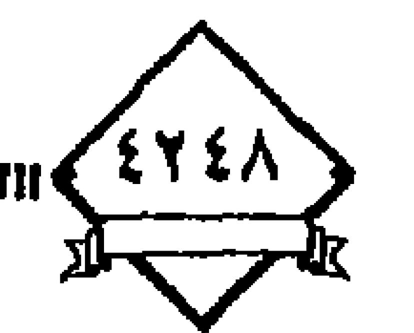
وبالنسبة للبعث الدنيوى وشهادة الرسول على الرسل أجمعين ذكر القرآن الكريم الذى نزل مصدقا لما بين يديه من الكتب وشاهدا للرسل أجمعين قال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾.

وصفه الله تعالى بأربعة أوصاف كاملة.

الوصف الأول ـ أنه تبيان كل شىء أى فيه بيان كامل لكل شىء من شئون الرسالات الإلهية للبشر، ففيه خير رسالات النبيين السابقين، وفيه بيان الأحكام المحكمة التى لم يَعْرُها نسخ من الشرائع الإلهية كلها، وفيه المعجزات التى جاءت بها الرسل معجزة معجزة، ولولا القرآن الكريم ما علمت على درجة اليقين معجزة لنبى أو رسول، لأنه الكتاب المحفوظ المتواتر حقا وصدقا.

والوصف الثانى ـ أنه هدى، فهو يشتمل على الهداية، كما قال قائل الجن: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ ... ②﴾ [الجن] ويبين السبيل الأقوم والطريق المستقيم.

والوصف الثالث ـ أنه الرحمة؛ لأن شريعته رحمة للعالمين فهى بنظامها واقتصادها وحدودها، وكل عقوباتها رحمة للكافة من الأمة، وإن كانت فيها قسوة أحيانا على الآحاد، ففيها رحمة للعباد.



والوصف الرابع - ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾ فيه التبشير للمؤمنين بالجنة، والإنذار للكافرين بالنار، وذكرت البشرى دون النذر لأنها التى تتناسب مع الرحمة، والله ولى المؤمنين.

من الأخلاق القرآنية

قال الله تعالى:

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُ بِٱلْعَدْلِ وَٱلْإِحْسَٰنِ وَإِيتَآيِٕ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ وَٱلْبَغْىِ ۚ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِ ٱللَّهِ إِذَا عَٰهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا۟ ٱلْأَيْمَٰنَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ ٱللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ ﴿٩١﴾ وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ۚ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ ٱللَّهُ بِهِۦ ۚ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٩٢﴾ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَلَتُسْـَٔلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ وَلَا تَتَّخِذُوٓا۟ أَيْمَٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌۢ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا۟ ٱلسُّوٓءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلَكُمْ عَذَابٌ

﴿عَظِيمٌ ﴿٩٤﴾ وَلَا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٩٥﴾﴾

وصف القرآن الكريم فى الآية السابقة بأنه تبيان كل شىء وهدى ورحمة، وهو بذلك يشير إلى أنه جامع للشريعة وفيها الهداية، وفيها الرحمة، وقد بين الله الهداية والرحمة وغيرها فقال:

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٩٠﴾﴾.

العدل يتضمن الرحمة بأعلى معانى الرحمة، وإن كان العدل يوجب الشدة والغلظة على الجناة؛ لأنه إذا كان فيه غلظة على الجانى، ففيه رحمة بالمجموع، والرحمة بالمجرم تشجع الجريمة؛ ولذا قال ﷺ: «**من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَمْ**»[1]؛ لأن العطف على الجانى إيذاء للكافة، ولقد قال النبى ﷺ فى الرحمة المطلوبة: «**هى الرحمة بالكافة**»[2]، وإذا كانت شريعة الله تعالى رحمة للعالمين، فلأن قوامها العدل.

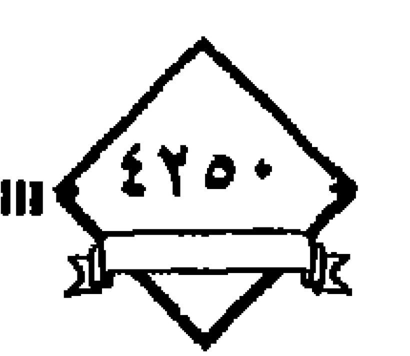
العدالة فى الإسلام:

تجرى فى الشرائع كلمات ثلاث المصلحة أو المنفعة، والواجب أو الفضيلة، والعدالة، ونجد أن كلمة العدالة أشملها، بل هى تشمل الأمرين الآخرين، فإن العدل يتضمن المصلحة العامة والمنفعة الشاملة، إذ يكون الجميع فى أمن ويمنع الظلم والبغى والعدوان، وهو بذلك يدفع أضرار هذه الموبقات، والعدل فيه حماية للأنفس، وقمع للرذائل، فالرذائل فى جملتها اعتداء، وكل دفع للاعتداء يكون عدلاً، وإن كل شىء فى الشريعة قام على العدل، حتى عقود المعاملات فإنها قامت على المساواة، فأساس التعاقد هو المساواة بين العوضين، فإذا دخل التعامل

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك (٧٣٨٦) ج٤/ ١٨٥ هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.



غُبن أو تغرير أو مماكسة أثر ذلك فى صحة العقد مما أدى إلى كلام طويل بين الفقهاء فى ذلك.

والعدل الذى يأمر الله تعالى به ليس هو فقط الإنصاف بين الناس المأمور به فى قوله تعالى: ﴿ ... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (٥٨) ﴾ [النساء]، بل إن العدل له شعب ثلاث:

١ ـ العدل فى حق الله تعالى بشكر نعمته، والقيام بما أمر من فرائض، والانتهاء عما نهى من منهيات، فذلك عدل مع الله؛ لأنه فى جملته من شكر النعمة، وهو عدل لأنه قيام بالواجب نحو ما أعطى سبحانه وتعالى.

٢ ـ وعدل فى ذات نفسه بأن يكون مستقيم النفس، لا انحراف ولا تجانف، ولا ميل عن الطريق السوى.

٣ ـ وعدل مع الناس بأن يحب لهم ما يحب لنفسه، كما قال ﷺ: «**عامل الناس بما تحب أن يعاملوك**»، وبأن ينتصف للناس من نفسه، ولا يلجئهم إلى الحاكم.

ثم أخيراً إنصاف الناس إذا حكم.

وتعجبنى كلمة قالها ابن العربى، فقد قال: «العدل بين العبد وربه إيثار حقه تعالى على حق نفسه، وتقديم رضاه على هواه، والاجتناب للزواجر والامتثال للأوامر، وأما العدل بينه وبين نفسه، فمنعها مما فيه هلاكها، قال الله تعالى: ﴿ ... وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ (٤٠) ﴾ [النازعات]، وعزوب الأطماع عن الاتباع، ولزوم القناعة فى كل حال ومعنى، وأما العدل بينه وبين الخلق فبذل النصيحة وترك الخيانة فيما قل أو كثر، والإنصاف من نفسه لهم بكل وجه، ولا يكون منك إساءة إلى أحد بقول ولا فعل، ولا فى سر ولا فى علن، والصبر على ما يصيبك منهم من البلوى، وأقل ذلك الإنصاف وترك الأذى».

ولم يذكر العدالة فى الحكم؛ لأن ذلك أمر لا يحتاج إلى تنبيه بعد نص القرآن فى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ... (٥٨)﴾ [النساء].

هذا هو العدل الذى أمر الله تعالى به قد ذكرناه، وإن كان بيانه أعلى مما تشمله عقولنا، وقد ابتدأ سبحانه وتعالى به؛ لأنه يتعلق بالكافة، وهو مطلوب فى كل حال، وهو إعطاء كل ذى حق حقه، ثم أمر بعد ذلك بالإحسان وهو أكثر من العدل فيوضاً، وخيره يمتد ويزيد؛ ولذا عقب العدل بالإحسان.

الإحسان:

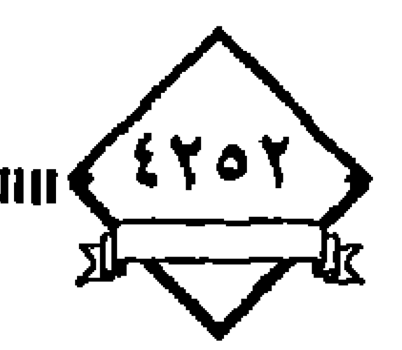
والإحسان مصدر أحسن، وأحسن تتعدى بنفسها، وتكون بمعنى الإتقان والإحكام، ومنه الإحسان فى العبادة كيفًا بأن ينصرف الوجه لله تعالى، ويقرب منه، ومنه أداء النوافل لإتقان الفرائض، ومنه حديث جبريل فى التعريف بالإحسان **«أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك»**(١).

وأحسن تتعدى بـ (إلى) بمعنى أعطاه حقه وزاد عليه فضلا من عنده، حماية لنفسه من الظلم ووقاية له من التعدى، والإحسان بهذا المعنى يكون فى المال فيكون بإعطاء الزيادة عما يستحق، ويكون فى القول فيقابل القول السيىء بالقول الحسن، كما قال تعالى: ﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤)﴾ [فصلت] ويكون بالصفح عمن ظلم، وبالعفو عمن أساء، ويكون بالربط بين الناس بالمودة والعفو فما زاد عبد بعفو إلا عزاء.

والإحسان يكون بين الخلطاء والعشراء، والتعامل الأحادى، ويكون الأمر بالإحسان بعد الأمر بالعدل انتقال من الأمر العام الذى هو صالح وواجب فى كل الأحوال، وفى كل الأوقات إلى أمر آحادى تطيب له النفوس، وتتلاقى به بالمحبة والمودة، يكون التآلف والتراحم والتآخى فى الجماعة.

---

(١) سبق تخريجه.



إيتاء ذى القربى:

وبعد ذلك نزلت الأوامر إلى الأسرة بربط آحادها، فقال تعالى: ﴿وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى﴾ والقربى مؤنث أقرب، والمعنى إيتاء الأقربين ومعونتهم، وألا يضن عليهم بخير يقدمه لهم، وهو صلة الرحم التى أمر الإسلام بها، والإيتاء الإعطاء والأصل المال، ولكنه يشمل كل ما يكون خيراً يسديه إليهم مالا أو معروفا.

والأسرة فى الإسلام ليست مقصورة على الزوجين والفروع، بل هى الأسرة الممتدة الشاملة للأصول والفروع والحواشى من الإخوة والأخوات وأولادهم، والأعمام والعمات وأولادهم، والأخوال والخالات وأولادهم، وقد أوجبت الشريعة الإسلامية وجوب نفقة القريب على قريبه إذا عجز عن الكسب، ولم يكن ذا مال، ووضعت مقياسا دقيقا أساسه الغرم بالغنم فمن كان يرثه إذا مات، تجب عليه نفقته إذا عجز.

هذه هى التى أمر الله تعالى بها، وعليها يقوم بناء المجتمع الصالح، وبعد ذلك نهى سبحانه عما يخرب ذلك المجتمع وينخر فى عظام المجتمع الحمى، فقال تعالى: ﴿وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ﴾.

نهى عن أمور ثلاثة هى أدوات الهدم فى البناء الاجتماعى:

الأمر الأول - ﴿الْفَحْشَاءِ﴾، وهى بمعنى الزيادة والإفراط فيها، وكل المعاصى فيها إفراط فى الزيادة عن مقتضى الفطرة، ويقول البيضاوى فى تفسير معنى ﴿الْفَحْشَاءِ﴾: هى الإفراط فى متابعة القوى الشهوية كالزنى، فإنه أقبح أحوال الإنسان، ونقول إن الفحشاء تشمل كل متابعة للهوى الجامح الخارج عن حدود الاعتدال كشرب الخمر والقمار والزنى، ومجاوزة الحد فى أى أمر من أمور الشهوة حسيا أو معنويا.

الأمر الثانى - ﴿وَالْمُنكَرِ﴾ هو ما تنكره العقول المستقيمة، ويخرج به المرء عن حد المعقول كقول الزور والبهتان، والإفراط فى الاستهانة بحقوق غيره،

والاندفاع وراء غضب جامح يخرج عن حد المعقول، إلى حد ما ينكره المجتمع ويتجافاه، ويقطع المودة وينقض ما أمر الله تعالى به أن يوصل.

الأمر الثالث - ﴿وَالْبَغْيِ﴾ هو الاعتداء على الناس، والتجبر والاستعلاء عليهم، وأن يمنعهم حقوقهم ويأخذها بغير حق، وإن ذلك من آثار الوهم بأنه من صنف أعلى من صنفهم، فيغالى فى الاستهانة بهم، ويبغى عليهم فى حقوقهم، ويبخسهم حقهم، كما نرى الآن من بغى بعض الناس على بعض باسم أنهم سود، أو باسم أنهم من الأمم النامية، أو باسم الطبقات، فكل ذلك من وهم الاستعلاء والغلو فى إعطاء أنفسهم حقوقا ليست لهم، ولكنهم يفرضونها لأنفسهم، وسببها بغيهم وظنهم أنهم من صنف فوق الناس وأن الناس دونهم، ولقد قال البيضاوى فى البغى ما نصه: «والاستيلاء على الناس والتجبر عليهم، فإنها الشيطنة التى بمقتضى القوة الوهمية، ولا يوجد فى الإنسان شر إلا وهو مندمج فى هذه الأقسام صادر بتوسط إحدى هذه القوى الثلاث (أى الشهوة أو الغضبية أو الوهمية).

وختم الله سبحانه وتعالى الآية بقوله تعالى: ﴿يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، أى رجاء منكم بأن تذكروا هذه الأوامر فتطيعوها، وهذه المنهيات فتجتنبوها، وتكون لكم موعظة تتعظون بها، وتعتبرون فى اتصالكم بالناس والحياة بها.

لقد قال ابن مسعود: إن هذه أجمع آية لمعانى الإسلام، ويروى عن عثمان ابن مظعون أنه قال: أسلمت حياءً من النبى ﷺ فلما سمعت هذه الآية آمنت بالإسلام حقا وصدقا.

ويروى أن أكثم بن صيفى حكيم بنى تيم وخطيبهم، وكبيرهم فى سنه لما بلغه مخرج النبى ﷺ أراد أن يذهب وقد بلغه الكبر، فأبى عليه قومه، وقالوا: أنت كبيرنا لم تكن لتخف إليه، قال: فليأت من يبلغه عنى، ويبلغنى عنه، فدعا رجلين، فأتيا النبى ﷺ فقالا: نحن رسل أكثم بن صيفى، وهو يسألك: من

أنت، وما أنت؟، فقال الرسول ﷺ: «**أما من أنا فأنا محمد بن عبدالله، وأما ما أنا فأنا عبدالله ورسوله**، ثم تلا قوله تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ** (٩٠)﴾»، قالوا: ردد علينا هذا القول فردده عليهم حتى حفظوه، فأتيا أكثم فقالا: أبى أن يرفع نسبه، فسألنا عن نسبه فوجدناه زاكى النسب، وسطا فى مضر - أى من أشرف مضر - وقد رمى إلينا بكلمات قد سمعناها، فلما سمعها أكثم قال: إنى أراه يأمر بمكارم الأخلاق، وينهى عن ملائمها.. كونوا فى هذا الأمر رءوسا، ولا تكونوا أذنابا.

هذا ويجب التنبيه إلى أن أبلغ ما فى المأمورات العدالة، فهى أقواها أثرا فى بناء المجتمع، وأقبح المنهيات البغى، فكلها يمس ناحية فيه، ولقد قال النبى ﷺ فيه وفى قطيعة الرحم: «**ما من ذنب أحق أن يعجل الله عقوبته فى الدنيا مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة من البغى وقطيعة الرحم**»[1].

العهد فى الإسلام:

دعا الله تعالى فى هذه الآية إلى العدل فى وسط الجماعة الإسلامية، ودعا إلى العدل بين المسلمين وغيرهم، وميزان العدالة الدولية الوفاء بالعهد؛ ولذا جاء الأمر بالوفاء بالعهد بعد الأمر بالعدل، فقال عز من قائل:

﴿**وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ** (٩١)﴾.

أمر الله تعالى بأن يعدل المؤمنون مع غيرهم، ولو كانوا يبغضونهم، فقد قال تعالى: ﴿ ... **وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**... (٨)﴾ [المائدة]، وإذا كان فى بعض الديانات جاء عمن ينسبونها إليه: استغفروا لأعدائكم. فشعار الإسلام: اعدلوا مع أعدائكم، وشعار العدالة أقوى

(١) سبق تخريجه

وأثبت وأليق، وكيف يستغفر للعدو إذا مات على ضلالة، ولكن العدل معه معقول فى ذاته، وتحقيقه وهو الأكرم والأنسب.

ومن العدالة مع الأعداء الوفاء بالعهد؛ ولذا قال تعالى: ﴿ ... وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولاً (٣٤) ﴾ [الإسراء]، وقد قال تعالى: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾. قيل إنها جاءت فى بيعة المسلم عند دخوله فى الإسلام يبايع الله ورسوله على الإسلام، وقيل: أن هذا فى النذور، والحق إن الأمر فى الآية عام فى وجوب الوفاء بالعهد سواء أكان عهدا فرديا أم كان جماعيا أم كان دوليا، والوفاء بالعهد من العدالة، والعهد اتفاق بين طرفين يوجب على كل واحد منهما التزاما، وهو كأى عقد بين طرفين يوجب إلزاما والتزاما، فلا ينقضى إلا بتراضى الطرفين، وليس هذا داخلا فى عموم قول النبى ﷺ: «**من حلف على شىء، فرأى خيرا منه فليحنث وليكفر**»[1]، فإن ذلك فى الأيمان التى هى التزام شخصى كأن يحلف ألا يفعل كذا، أو ألا يصلح بين خصمين، فإن ذلك واقع تحت النهى فى قوله تعالى: ﴿وَلا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّأَيْمَانِكُمْ أَن تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ ... (٢٢٤) ﴾ [البقرة].

وقد سمى الله تعالى العهد الذى يعاهد عليه، ويكون فيه التزام من الجانبين؛ ولذا كان بصيغة المفاعلة، ﴿عَاهَدتُّمْ﴾، وسماه عهد الله لأنه موثق بيمين الله عادة، ولأنه بين دولة الإسلام وغيرها، فكان كأنه عهد الله الذى وثقه المسلمون فى ظل الله تبارك وتعالى.

وهو يشمل كل عهد عاهدته الدولة الإسلامية بعهد الله تعالى، وهو عدل وقوة، أما أنه عدل فلأنه وفاء بما التزموا ومن العدل الوفاء لهم، وكما أنهم ملزمون بالوفاء فيجب علينا أن نلتزم به، وأما أنه قوة، فلأن من يطمئن إلى عدله

---

(١) سبق تخريجه.

يكون آمنا من جانب من عاهدهم، وينصرف لتنمية ثروته، وتمكين قوته، والانفراد بأعدائه الذين لم يعاهدوه، وانظر إلى عهد الحديبية الذى عقده النبى ﷺ مع المشركين، فإنه انصرف فى المدة التى كان فيها عهد الدعوة إلى الإسلام، حتى كان من دخلوا فى الإسلام بعد العهد أضعاف من دخلوا من قبله بل أضعاف أضعاف وانفرد ﷺ لليهود، فغزاهم فى خيبر، وخرج للروما‌ن فى خيبر.

والعهد ليس أبديا بل ينقض إن كانت خيانة، أو مظنة خيانة كما قال تعالى: ﴿ وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ ... (٥٨) ﴾ [الأنفال].

وإن العهد لا يكون بين دولة الإسلام وغيرها من الدول فقط، بل يكون فى داخل الدولة الإسلامية كالإخاء الذى كان بين المهاجرين والأنصار والمهاجرين بعضهم مع بعض والأنصار بعضهم مع بعض.

وقد أكد سبحانه الأمر بالوفاء بالنهى عن النقض معللا النهى، فقال تعالت كلماته: ﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا﴾.

أى لا تنقضوا العهود لأنها نقض للأيمان بعد توكيدها، والتوكيد هو التأكيد، وهما لغتان جائزتان وتوكيد الأيمان معناها أن تكون باسم الله، وبأن تكون أمام شهود وفى مجالس تقرها وتؤيدها، والكفيل هنا هو الرقيب الضامن، فمن عاهد بيمين الله، فقد جعل الله تعالى كفيلا له ضامنًا لقوله فعليه أن يحترم، وكفيلا- هنا تتضمنه معنى الرقابة؛ لأن الكفيل يراقب المكفول، حتى يؤدى ما التزم أداءه.

وقد بين سبحانه مضار النقض، وأشار إلى ذلك فقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾، أى عليم بما فعلتم وقد عقد العهد، ووثقتموه بيمين الله تعالى، وعليم بفعلكم إذا أردتم النقض، وقد أكد سبحانه وتعالى علمه الأزلى بالجملة الاسمية، وبإن، وبلفظ الجلالة، وبتقديم الجار والمجرور على الوصف؛ لأنه يفيد مزيد العناية بأفعالكم وشدة رقابته عليها.

وقد أكد الله الأمر بالوفاء وإثبات أن الوفاء قوة فقال عز من قائل:

﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ (٩٢) ﴾.

الأنكاث: جمع نكث كنقض الفَتْل هو الشعر الذى كان مفتولا ثم نقض، وصار أجزاء متفرقة بعد الفتل وشد الفتل، والمعنى أن العهد قوة، وقد شبه القرآن الكريم الذى ينقض عهده بالمرأة التى تفتل غزلها فتلا شديدا، ثم بعد فتله تنقضه أجزاء وصوفا متناثرا، وهو مثل يضرب لكل من يعمل عملا يكون له ثمرة طيبة ثم ينقض ما تم من جهة ويبطل عمله، فتفقد ثمرة العمل الذى عمله بحقها وجهها، وقوله تعالى: ﴿ تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ ﴾، أى بهذا العمل وإبرام العقد وتوثيقه بالأيمان تتخذون الأيمان والحلف بالله ﴿ دَخَلاً ﴾، أى غشا وخديعة وتضليلا بينكم.

وقوله تعالى: ﴿ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ ﴾، ﴿ أَرْبَى ﴾ أى تكون أكثر عددا، وأوسع أرضا، وأكثر مالا، وأقوى قوة فكلمة ﴿ أَرْبَى ﴾ تشمل كل هذا.

والأمة التى هى أربى هى الناقضة للعهد بعد الأيمان الموثقة، أو هى المنقوض للعهد بالنسبة لها، وعلى المعنى الأول أن النقض للعهد أو الرغبة فيه سببها إرادة أن تكون أمة هى أربى من أمة، فتنقض العهد ليتسع حيزها، وليكثر عدد من هم فى ولايتها، فمعنى الآية على هذا التخريج لا تكونوا كالتى نقضت غزلها رغبة فى أن تكون أمة هى أربى من أمة، أو إرادة ذلك أى لتكون أربى عددا أو أكثر ولدا وأوسع أرضا، أو أقوى عدة من أمة.

وإذا كان المنقوض عهدها هى الأربى، فمؤدى ذلك أن يكونوا قد عقدوا معها لقوتها، وأنها أربى ويكون قد عقد دخلا وغشا لينقض فى أول فرصة.

وإنى أميل إلى التخريج الأول لأنه أوضح بيانا، وأظهر برهانا، ومؤدى القول أنه لا يصح نقض العهد لإرادة الاستعلاء، كما كان يفعل المشركون، وكما

كان يفعل الذين لا يرقبون فى المؤمنين إلاً ولا ذمة وإن هذا النص السامى يدل على ثلاثة أمور:

الأمر الأول ـ أن العهد قوة، وأن الوفاء به استمساك بما فيه قوة، وأنه يكون كالحمقاء تفعل ما هو سبب للقوة ثم تنقضه، وأن الأمم مهما تكن قوتها إذا استهانت بالعقود لا يثق الناس فى رجائها، فإذا كانت الشديدة تلفتت فلا تجد أحدًا حولها؛ لأنه لا ثقة فيها، وقد رأينا ذلك رأى العين فى أمم شرقت وغربت، ثم تزايلت حتى زال سلطانها.

الأمر الثانى ـ أن العهد إن تم نقضه غشا وخديعة لا يقدم عليه أهل المروءة والأعزَّاء، وعبث بأيمان الله سبحانه وتعالى.

الأمر الثالث ـ أن علو الأمم فى الوفاء بعهدها لا يصح أن تتخذ النقض أمة لتنمو وتربو فإنها إن ربت ونمت بالإخلاف بالوعد، فهو نمو يحمل فى نفسه ما يوجبه انحلاله وذهاب قوته.

وإن الوفاء بالعهد بين الأمم احترام الإنسانية التى يعقدون معهم، فهم يعدونهم أناسى مثلهم يعرفون حقوقهم ويراعون الواجبات نحوهم، والذين ينقضون العهد تسول لهم قوتهم أنه ليس لأحد حقوق قِبلهم، ولا يعاملونهم إلا كمن هم دونهم، وقد رأينا ذلك فى حكومة عاتية أزالها فساد عهودها، ونراها الآن فى وريثة لها تكبر من غير عهد ولا ذمة ولا ضمير ويحسبون الناس قد أباحتهم لهم قوتهم.

وإن الوفاء بالعهد، وهو من مكارم الأخلاق وملاحظة حقوق الإنسان لأخيه، ونقض العهد نقيض ذلك وكثرة الأمم وقلتها وهو من ابتلاء الله تعالى للأمم وللناس؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾، الضمير فى ﴿بِهِ﴾ يعود إلى أن تكون أمة أربى من أمة أو إلى نقض العهد لذلك، أى يختبركم الله تعالى بأن تكون أمة كثيرة العدد واسعة

الأرض كثيرة المال وأخرى ضعيفة فإن صبرت القوية الرابية واستمسكت بالوفاء زادها الله تعالى، وإن غلب عليها هواها، فاستهانت بالعهد لاستهانتها بمن عقدته معها، فإن مآلها الضعف والخذلان، والله عليم بما يفعلون، هذا عقاب الدنيا، أما عقاب الآخرة، فقد ذكره سبحانه وتعالى بقوله: ﴿ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴾، وبيان الله تعالى يوم القيامة يكون مقترنا بجزائه، إن خيراً فخير، وإن شرا فشر، وقد أكد سبحانه وتعالى بيان ذلك الجزاء لهم أولا بلام القسم، وثانيا بنون التوكيد الثقيلة وبالقسم، وما كانوا يختلفون فيه هو الشرك والإيمان ثم الوفاء والنقض ثم احترام الإنسانية والاستهانة بها، فكل ذلك جزاؤه يوم القيامة، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ولا الإيمان والكفر، ولا الوفاء بالعهد ونقضه.

وإن ذلك الاختلاف بين الحق والباطل هو إرادته سبحانه ليبلوكم أيكم أحسن عملا؛ ولذا قال سبحانه:

﴿ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٣) ﴾.

والمعنى لو أراد ذلك سبحانه ولعلقت مشيئته بأن أمة واحدة آخذة بالحق مهدية لجعلكم كذلك، ولكن خلقكم سبحانه، ولكم إرادات مختارة تسلك الحق أو الضلال، ويختبر أهل الباطل بأن يعطيهم قوة يهتدون بها، أو يضلون، ومعنى أمة واحدة أمة مهدية أو أمة شقية، وتكونون حينئذ على سواء فى الهداية أو الشقاء، ولكن كانت لكم هذه الإرادات التى بها تضلون إن سرتم فى طريق الضلال، وتهتدون إن سرتم فى طريق الهداية.

ولكن إرادة الله تعالى اتجهت إلى ذلك الاختلاف لتكون الحياة ولتكون المعاقبة بين الخير والشر، ويتنازع أهل الشر مع أهل الخير وليكون الخير بعمل أصحابه، والشر بعمل أصحابه، ويكون الضلال وتكون الهداية؛ ولذا قال: ﴿ وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ ﴾ إضلال الله هو كتابة العبد فى أهل الضلال وهداية الله كتابته فى أهل الهدى، وذلك لأن العبد له إرادة يشعر بها،

وأنه ليس بمجبر فيها، وأنه يختار إما الضلالة ليشقى وإما الهداية فيسعد، وما يعمله مكتوب فى اللوح المحفوظ، فهو فى هذا اللوح، إما شقى وإما سعيد، وقد غيب عنه المكتوب ليفعل ما يفعل حرا مختارا، هذا أمر شعورى بدهى، لا يحتاج إلى فلسفة أهل الجبر ولا أهل الاختيار.

والاستدراك فى قوله تعالى: ﴿وَلَكِن يُضِلُّ مَن يَشَاءُ...﴾ إنما هو عن خلقهم أمة واحدة بل هو للتفرقة بين الضلال والهدى فيما يكتبه الله تعالى، ويقدره، ولقد قال سبحانه بعد ذلك ﴿وَلَتُسْأَلُنَّ عَمَّا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾، أى أن أعمالكم باختياركم ويقوتكم الذاتية وتسألون عنها: أهى خير فتثابوا أم هى شر فتعذبوا، وكل أعمالكم مكتوبة عليكم وبكتابتها يضلكم أو يهديكم.

وبعد أن بين سبحانه أن كون أمة أربى من أمة هو بمشيئة الله وإرادته مع بقاء الاختيار للعباد أكد سبحانه وتعالى النهى عن نقض الوفاء بالعهد فقال:

﴿وَلا تَتَّخِذُوا أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٩٤)﴾.

كان النهى عن اتخاذ الأيمان دخلاً أى غشا وخديعة فى العهود؛ لأن الكلام كان فى العهود ونقضها، إذ ابتدأ القول: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ أما النهى فى هذه الآية عن اتخاذ الأيمان دخلاً، فهو نهى عن الحلف الكاذب خديعة وغشا ومكيدة بعهد كان يعتزم فعل أمر أو يظهر اعتزامه ويوثقه بيمين، ولا يتجه إلى المعاهدة عليه، فإن ذلك منهى عنه، أو يؤكد كلامه عن أمر سابق باليمين وهو كاذب فى يمينه، فإن اليمين فى هذه الحال غش وخديعة ويكون ممن لا يطاع ولا يستمع إليه إذ يقول الله تعالى: ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَّهِينٍ (١٠) هَمَّازٍ مَّشَّاءٍ بِنَمِيمٍ (١١)﴾ [القلم].

وعلى ذلك يكون النهى عن اتخاذ الأيمان للغش والخديعة يشمل العهود والبيعات ويشمل توثيق يمين منعقدة لا ينوى التنفيذ فيها، أو يمين غموس هو فيها كاذب، كشهادات الزور، ونحوها مما تتخذ اليمين للغش والخديعة، وضياع الحقوق والدعاء الباطل وتأكيده بهذه الأيمان.

ولقد قال تعالى فيما يترتب على اتخاذ الأيمان الباطلة غشا وخديعة وتثبيتا للكذب ﴿فَتَزِلَّ قَدَمٌ بَعْدَ ثُبُوتِهَا﴾، هذا تشبيه جيد وهو استعارة من قبيل تشبيه المعنوى بالحسى أى شبه الانحراف الدينى الذى يؤدى إليه الأيمان الباطلة بعد الإسلام والاستظلال بظله كزلَّة القدم بعد ثبوتها قوية، فمعنى الزلل الانتقال من الخير إلى الضرر.

﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ﴾، والسوء هو الأمر السيئ وشبه بالشئ الذى يذاق كأنه بعد أن ذاق حلاوة الإيمان ذاق السوء وهو الكفر، ذلك لأن الأيمان الكاذبة تفسد اليقين، وتضعف الإيمان بالحق، وفوق ذلك إذا شاعت ضاعت الثقة بين الناس، وصار الناس لا يؤمنون بشىء، وإن ذلك يؤدى إلى الضلال، والضلال يؤدى إلى الصد عن الحق، والحق هو سبيل الله المستقيم، وصراطه الهادى؛ ولذا قال تعالى: ﴿وَتَذُوقُوا السُّوءَ بِمَا صَدَدتُّمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ فإنه لا يضيع الحق ولا يسير الناس فى ضلال من أمورهم إلا الكذب، فإذا وثق بأيمان فاجرة كان الصد عنه بل ضياعه.

ولذا قال تعالى فى عقابه: ﴿وَلَكُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾، أى كبير شديد ونكر لإفادة أنه عظيم أبلغ العظم لا يعرف مقداره، ونكرت ﴿قَدَمٌ﴾ وأفردت لأنه تتعدد الأقدام الزالة بتعدد الأيمان، وأكد سبحانه النهى عن نقض العهد مهما يكن الثمن، فقال تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (٩٥)﴾.

عهد الله تعالى هو عهده سبحانه الذى أمر بالوفاء به فى قوله: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ﴾ فكل عهد تعاهد المؤمن أو دولة الإيمان عليه هو عهد الله تعالى لا يصح أن ينقض؛ لأنه يؤدى إلى الخذلان وإلى الصد عن سبيل الله سبحانه، وتشترى هنا معناها تبيعوا؛ لأن الباء داخلة على المتروك، وقوله تعالى: ﴿ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ قد وصف سبحانه ما يترك لأجله العهد بأنه ثمن قليل مهما يكن مقداره؛ لأن ما يضيع بسبب ترك العهد من فقد الثقة والشك فى العهود والمواثيق أمر كبير لا يقدر بقدر؛ لأنه يكون الوهن والخزى والضياع وقد ضربنا الأمثال على

ذلك كثيرا، وفوق ذلك عذاب الله تعالى يوم القيامة وجزاؤه على الوفاء فى الدنيا والأخرة فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

(ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى أن الذى ادخره الله فى الدنيا والآخرة خير لكم، ففى الدنيا تكون عزة الحق، وقوة الوفاء وهو فى ذاته قوة، وخصوصا إذا كان العقد مع الضعفاء، وفى الآخرة نعيم مقيم.

الله أبقى وخيره أبقى

قال الله تعالى:

مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٩٨﴾ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٩٩﴾ إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾

فى الآية السابقة، قال تعالى: ﴿وَلا تَشْتَرُوا بِعَهْدِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً﴾ وختم الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا عِندَ اللَّهِ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾.

وفى هذه الآيات الكريمات يبين وجه الخيرية لما عند الله تعالى؛ ولذا قال تعالى:

﴿ مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٦) ﴾، (ما) اسم موصول بمعنى الذى، أى الذى عندكم أعراض فانية فإن كانت مالا فإنها تنفدُ ينهيها الزمان مهما يكن الحرص، وإن بقيت فإنما تبقى بقدر حياة الذى يقتنيها، وإن حياته لقصيرة فى أزمان الناس، ﴿ وَمَا عِندَ اللَّهِ بَاقٍ ﴾، أى والذى عند الله باق يبقى ببقاء الجنة، وإن نعيمها الخالد والذين ينالونها خالدون فيها أبدا، والفرق بين ما عند الناس حلالا وحراما وما عند الله هو الدوام فنعيم الآخرة مقيم، ونعيم الدنيا فأقصى مدته هى مدة الدنيا.

وقد بين سبحانه وتعالى الذين يستحقون ما عند الله وهو الباقى فقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، و﴿ صَبَرُوا ﴾ صلة الموصول، وهى تشير إلى أن الصبر سبب هذا النعيم الباقى الذى لا ينفد، فالصبر وهو ضبط النفس فى ظل الأوامر والنواهى، فضبط النفس عند الأمر بالوفاء بالعهد يوجب ألا يندفع الناس وراء بارقة تحمل على النقض، ويوجب ألا يستطار وراء مطمع فلا يفى، والصبر هو الذى يضبط النفس فيحملها على الطاعة، ويحملها على اجتناب المعاصى، والجهاد بالصبر على كف أهواء النفس ونزعاتها جهاد سماه النبى ﷺ الجهاد الأكبر.

وقال تعالى: ﴿ أَجْرَهُم ﴾ جزاء بأحسن الأعمال التى عملوها فقال: ﴿ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾، أى بأحسن الأعمال التى عملوا، يعنى يتخير الله تعالى لهم من أعمالهم أحسنها، ويغفر لهم اللمم والهنات، والجزاء على أحسن الأعمال يتناول الجزاء الأوفى على كل عمل يعملونه، وإن الله لا يضيع أجر المحسنين، وإن الصابرين لهم أجران: أجر الصبر وهو جهاد، وأجر العمل وهو إحسان، وهنا أمران بيانيان:

الأمر الأول ـ فى المقابلة بين ما عند الناس، وما عند الله، فقد وصف ما عند الناس بأنه ينفد، وما عند الله بأنه باق، أى له صفة البقاء والدوام والاستمرار وفرق بين ما يوجد لينتهى وما يوجد ليبقى.

الأمر الثانى ـ أن الله تعالى أكد جزاء الصابرين بالقسم ولامه، ونون التوكيد الثقيلة فقال: ﴿ وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا ﴾ وإن الجزاء يتخير فيه أحسن الأعمال ويعفو عن كثير. . . . .

وقد بين سبحانه وتعالى جزاء العالمين الصابرين فقال عز من قائل:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩٧) ﴾.

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ... ﴾.

﴿ مَنْ ﴾ هنا شرطية أو موصولة، و(الفاء) تدخل فى خبر الموصول لما بينه وبين الشرط من صلة إذ هو فى معناه، و﴿ مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ ﴾ بيانية ليعمها الجزاء بعد أن عمها الفعل، وذكر ﴿ صَالِحًا ﴾ والموصوف والعمل غير مذكور سواء أكان مقدرا أم كان غير مقدر، وذلك ليتجه النظر إلى نية الصلاح والمصلحة فى العمل، فإن الاعتبار للنية ككل خير فى قانون الأخلاق العبرة فيه إلى النية، كما قال ﷺ: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1].

وذكر هنا الذكر والأنثى مع أن الكل تشملهم التكليفات، والخطاب يشمل الذكر والأنثى، فيدخل الذكر ابتداء، ويدخل الأنثى بقانون المماثلة من حيث التساوى بينهما، ذكر الأنثى فى هذا؛ لأن الجزاء بالحياة الطيبة والاطمئنان وهذه تهم الأنثى بالذات فكان ذكر الأنثى فيه فضل حث وتحضيض للأنثى على عمل الصالح لتطيب حياتها بسعادة واطمئنان فى ظل زوج صالح.

وقال تعالى فى جزاء الصلاح بنيته المعتزمة للخير، والحال أنه مؤمن ثابت الإيمان قوى اليقين استمر فى إيمانه حتى لقى ربه راضيا مرضيا: ﴿ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاةً طَيِّبَةً ﴾، أى يحييه الله تعالى حياة طيبة فى الدنيا، و(الفاء) فى جواب الشرط أو ما هو فى معنى الشرط، وهو الموصول وقد أكد سبحانه أنه يحييه حياة طيبة بالقسم

---

(١) سبق تخريجه.

وباللام الموطئة للقسم، وبنون التوكيد الثقيلة، وما الحياة الطيبة التى وعد الله بها عباده المؤمنين الذين يعملون العمل الطيب بقلوب قاصدة الخير والصلاح، والصلاح غايتها ومبتغاها؟ الحياة الطيبة هى أن يكون رزقها حلالا، وأن يجملها الله تعالى بالرضا بكل ما يأتى به، والقناعة فى حال العسر، والرزق الحلال، أو طلب الحلال فى اليسر، والصبر فى الضراء والشكر فى السراء، وبرد اليقين وذكر الله تعالى دائما، فى حال البأساء والضراء وحال البأس ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨)** ﴾ [الرعد]، وفى الجملة الحياة الطيبة هى الحياة الراضية القانعة الشاكرة الصابرة ولا يكون ذلك إلا لمؤمن، وإن هذه الحياة الطيبة جزاء عاجل للإيمان والصالح من الذكور والإناث فلا سعادة خير من سعادة الرضا بالعمل الصالح، واطمئنان القلب بذكر الله والتوكل عليه فى الشديدة والكريهة بعد أخذ الأسباب والاتجاه إلى الله، أما الجزاء الآجل المؤكد الذى لا مرية فيه، فهو فى الآخرة، وقد قال تعالى فيه: ﴿ **وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾، ولم يذكر فى الحياة الطيبة أنها أجر، بل ذكرها على أنها ملازمة للعمل الصالح الصادر من قلب سليم، فهى ثمرة للصالح كثمرة الشجرة، وكإنتاج الزرع وحيثما وجد العمل الصالح كانت الحياة الطيبة ولو كانت جهاداً مستمرا، ومع ذلك له أجر هو ثواب الآخرة يجزيهم الله تعالى بأحسن ما يعملون، وقد ذكر أنه سبحانه يجازى ﴿ **بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ** ﴾ فجعل سبحانه وتعالى عملهم الصالح أو أحسنه هو الجزاء؛ لأنه يماثله أو يساويه كأنه هو، وهو سبحانه وتعالى مانح النعم ومجريها ، وقد ذكر سبحانه وتعالى بعد صالح الأعمال والأقوال وهو أعلاها، قراءة القرآن وذكره فقال تعالى:

﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)** ﴾ .

ذكر الله تعالى بعد الصالح من الأعمال والأقوال، والإصلاح بين الناس قراءة القرآن، فقال: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ (٩٨)** ﴾ .

ذلك لأن قراءة القرآن ذكر لله، واستماع لحديث الله وترداد له فهو إصلاح للقلوب وللنفوس، ولم يطلب من النبى ﷺ والمسلمين قراءته بل إن الإيمان يقتضى قراءته؛ لأنه أحسن الحديث، بل كان الأمر بقراءته ضمنيا فى ضمن الأمر بالاستعاذة من الشيطان الرجيم، وكان أمرا بالقراءة والاستعاذة معا، وفيه فائدة أن القراءة لا تجدى جدواها إلا إذا كانت معها الاستعاذة الحقيقية من الشيطان بإبعاد وساوسه فى تمنيات الإنسان إذ إن الأمانى ذريعة الشيطان، يدخل قلب المؤمن من جانبها كما أتى قلبى آدم وحواء بالأمانى، ثم سول لهما الأكل من الشجرة، (الفاء) فى قوله: ﴿فَاسْتَعِذْ﴾ هى فاء الإفصاح لأنها تفصح عن شرط مقدر، أى إذا اتجهت بالعمل الصالح والقول الصالح إلى القرآن ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ...﴾.

و﴿قَرَأْتَ﴾ هنا تطوى فى ذاتها نية القراءة أى إرادتها، فمعنى فإذا قرأت أى أردت القراءة، كما فى قوله تعالى: ﴿... إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُوا بِرُءُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَيْنِ... ⁽٦⁾﴾ [المائدة]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا ... ⁽١٥٢⁾﴾ [الأنعام]، وكقوله تعالى: ﴿... وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ... ⁽٥٨⁾﴾ [النساء]، وقوله فى شأن حجاب نساء النبى ﷺ عن السائلين متاعا ﴿...وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ... ⁽٥٣⁾﴾ [الأحزاب]، ففى كل هذه الآيات ذكر الفعل وطويت النية والإرادة لأنها ملازمة له ومقترن بها لا بتحقق من غيرها، بل الإرادة والنية هما الحقيقتان والقول مظهرها ولا ينفصل الباعث عن المظهر إذا كانا متصلين فى الوجود؛ ولذا كانت الاستعاذة مقدمة على القراءة بإجماع العلماء، ومنهم من جوز الاستعاذة بعد القراءة، والاستعاذة معناها الالتجاء إلى الله تعالى، والابتعاد عن وسوسة الشيطان وقت القراءة، ووسوسته تجيء من بث الأمانى فى النفس، وقد قلنا إنها ذريعة الشيطان وطريق دخول الهوى إلى النفس و﴿الرَّجِيمِ﴾ معناه المطرود الملقى عليه الحجارة، تثبيتا للإبعاد والطرد، والخطاب للنبى ﷺ ابتداء، ولأمته تبعا، وهم من يقتدى ويتبع، فالأمر بالاستعاذة أمر للأمة كلها، وهى بها أجدر وأحق.

وقد أكد سبحانه معنى الاستعاذة ببيان أنه ليس له سلطان على الذين آمنوا فقال عز من قائل:

﴿ إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٩٩) إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠) ﴾.

يحصن المؤمنين من الشيطان أمور ثلاثة:

الحصن الأول ـ الاستعاذة منه بالقلب واللسان كما أمر الله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾، كما قال النبي ﷺ وقال: «**علمنيها جبريل**»[1] فإن الاستعاذة تحصين للقلب من وساوس الشيطان ودخول هذا الحصن قراءة القرآن الكريم.

والحصن الثاني ـ الإيمان فإن الإيمان حصن الحق من الغرور والأوهام والأهواء، وكلها ذرائع الشيطان؛ ولذا قال في وعيده بالإغواء: ﴿ ... وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٣٩) إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٤٠) ﴾ [الحجر].

والحصن الثالث ـ التوكل على الله حق توكله، وأخذ الأسباب وتفويض الأمر إليه تعالى، وهو العلي القدير.

وهذا هو مؤدى قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا﴾ والضمير في (إنه) يعود إلى الشيطان المذكور في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ والسلطان الحجة والبرهان والاستيلاء على النفس المؤمنة، ولا يمكن أن يكون له ذلك عليها؛ لأنها تعرف أنه عدوها ومرديها ومفسدها، وماضيه في ذلك عندها معروف علمها إياه الحكيم العليم، وهي تتوكل على الله وحده، فلا يمكن أن يستولي عليها، فالنفس المؤمنة ليست فارغة حتى يتولاها.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾، فيه تقديم الجار والمجرور على الفعل يفيد القصر، أي لا يتوكل المؤمنون إلا على الله فليس في قلوبهم فراغ للشيطان يحتله، والتعبير بـ﴿رَبِّهِمْ﴾ يزكي توكلهم؛ لأنه الذي ذرأهم ورباهم

---

(١) سبق في مستهل سورة الفاتحة.

وكونهم، وإنما الشيطان يحتل بولايته من لا ولاية له مع الله، وفى نفوسهم فراغ من سلطان الله تعالى؛ ولذا قال تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ (١٠٠)﴾، قصر سبحانه سلطانه ﴿عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ﴾، أى على الذين جعلوا ولايتهم له فاختاروا الهوى على الحق والأوهام على الفعل، وكان سلطانه بمعنى حجته عليهم؛ لأنه أغواهم أولا بالأوهام الضالة والأهواء الجامحة المغيرة فكانت حجته الباطلة رائجة عندهم، وإنما أداة قصر، أى لا سلطان ولا ولاية على غيرهم إذا ضلوا سواء السبيل، فأضلهم وفرغت نفوسهم عن الإيمان فملأها بالأوهام.

وقد قال تعالى فى وصفهم إذ صار سلطانه عليهم: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِهِ مُشْرِكُونَ﴾ وفى هذا توكيد لتوليهم له، فهم مشركون بسببه أن اعتقدوا فى الأحجار الوهمية وهى لا تضر ولا تنفع بسببه، وأشركوهم مع الله بسبب تحكمه بأوهامه فيهم.

معجزة القرآن وقولهم فيها

قال الله تعالى:

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٠١) قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ (١٠٢) وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ

مُّبِينٌ ﴿١٠٣﴾ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٠٤﴾ إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ ﴿١٠٥﴾

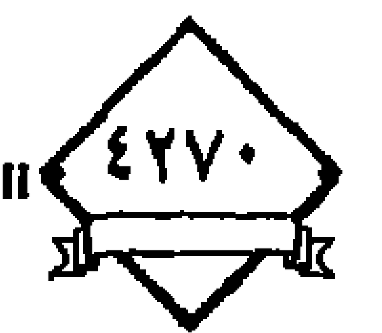
كان المشركون لا يعدون القرآن معجزة تساوى معجزات النبيين السابقين كعصا موسى وإبراء عيسى للأكمه والأبرص، وإخبار الناس بما فى بيوتهم وما يدخرون فيها وإحياء الموتى، وإخراجهم من قبورهم بإذن الله وإنزال المائدة من السماء ليأكلوا منها، كانوا يطالبون النبى ﷺ بمعجزات مادية حسية، ولا يقنعون بأن تكون المعجزة قرآنا يقرأ فبين الله تعالى أنه الذى يأتى بالمعجزات الدالة على أنه أرسل الرسل فهى إمارات الرسالة يعلم بها من الرسول بأنه من عنده.

فقال تعالى ردا على طلبهم آية: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءَتْهُمْ آيَةٌ لَّيُؤْمِنُنَّ بِهَا ... ﴿١٠٩﴾﴾ [الأنعام].

﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَّكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنَزِّلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، أى إذا جئتنا بالقرآن آية على صدق الرسول مكان آية أخرى حسية رفضناها وجئنا بهذه الآية المعنوية مكانها، والله صاحب الآيات والرسالات أعلم بالصالح منها، و(أعلم) أفعل تفضيل على غير بابه لأنه لا مفاضلة بين علم الله تعالى، وعلم غيره.

وعلم الله تعالى بما ينزل البالغ أقصى كمال العلم اقتضى أن تكون معجزته قرآنا يقرأ، وباق يتحدى الأجيال جيلا بعد جيل إلى يوم القيامة، وهو القادر على كل شىء، ؛ لأن المعجزات الحسية، إعجاز وقتى ينقضى بعد وقته، ولا يعجز إلا من رآه أو تواتر خبره من بعده، وإن القرآن المعجزة الكبرى الخالدة الباقية إلى يوم القيامة هى التى سجلت معجزات النبيين من قبله.

يقولون غير مصدقين معجزة النبى ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، أى إنما أنت كذاب قد افتريت الرسالة وادعيتها من غير حجة ولا برهان، وقد رد الله تعالى



قولهم بقوله سبحانه: ﴿بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾، ﴿بَلْ﴾ للرد عليهم، والإضراب عن قولهم الناشئ عنه، وقال سبحانه: ﴿أَكْثَرُهُمْ﴾، للدلالة على الذين صدقوا وآمنوا بالمعجزة هم الأقل عددًا، وإن كانوا الأكثرين إدراكاً وعلما.

ذكرنا فى كلامنا أن معنى الآية المعجزة الدالة على رسالة الرسول، وأن الله تعالى يرفع معجزات كانت قد جاءت مؤيدة رسالات الأنبياء السابقين قد بدلها الله تعالى، وأتى بمعجزة صالحة للبقاء تتناسب مع رسالة خاتم النبيين الذى تكون رسالته حجة على العالمين إلى يوم القيامة فتكون قائمة ثابتة تنادى بحجية ما يدعو إليه يوم القيامة.

ولكن أكثر المفسرين يفسرون الآية بالآية المتلوة حتى الزمخشرى، ويقولون إن معنى الآية، وإذا بَدَّل الله آية فنسخها ورفعها وجاء بآية أخرى لمصلحة فى الأولى فى حكمها فى زمانها، والإتيان بآية أخرى لمصلحة حكمها فى هذا الزمان الذى جاءت، وإن ذلك جرى على أقلام أولئك المفسرين لرواج فكرة النسخ تلاوة وحكما، وحكما لا تلاوة، وتلاوة لا حكما كما ادعى فى الرجم، وإن ذلك أداهم إلى التساهل فى دعوى الرجم، ولو كان الجمع بين الآيتين ممكنا لا تخالف بينهما.

وإن الذى ذكرناه أولا هو المقبول عندنا، فلا نسخ فى هذا الموضع على الأقل فى آية من القرآن للوجوه الآتية.

الوجه الأول ـ أن الكلام فى موضوع القرآن ذاته وكونه مفترى أو قام الدليل على صدقه لظاهر قوله عنهم: ﴿قَالُوا إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾ فحصروه فى الافتراء فنفوا الرسالة كلها، ويناسب ذلك أن يكون التبديل فى المعجزات السابقة، ووضع القرآن فى موضعها.

الوجه الثانى ـ أنه تعالى قال بعد ذلك ردا على الافتراء وعلى الاعتراض بقوله: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ﴾ فتبين أن موضوعها القرآن كله، لا نسخ آية، واستبدال آية أخرى بها.

الوجه الثالث ـ قوله تعالى بعد ذلك: ﴿ **وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ** (١٠٣) ﴾.

الوجه الرابع ـ أن هذه السورة مكية، والآيات المكية تتجه نحو التوحيد وإثبات الخالق، وأحكامها قليلة، والتجربة فيها قليلة.

لهذا كله سمحنا لأنفسنا بأن نخالف كثرة المفسرين، وإن كان لهم أجر فيما اجتهدوا، وهو أجر واحد.

وقد رد الله تعالى افتراءهم بأمر النبى ﷺ أن يقول لهم:

﴿ **قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** (١٠٢) ﴾.

الخطاب للنبى ﷺ بالأمر من ربه والضمير فى ﴿ **نَزَّلَهُ** ﴾ للقرآن المذكور آنفا فى قوله تعالى: ﴿ **فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ** (٩٨) ﴾، و﴿ **نَزَّلَهُ** ﴾ مصدره التنزيل، وهو الإنزال المتدرج على حسب المناسبات، وليتمكن الذين يكتبون من كتابته، وهم أميون، لا يستطيعون الكتابة الطويلة، وليحفظوه فيسجل فى الصدور بدل السطور فيصعب بل لا يمكن تحريفه، وقد تواتر جيلا بعد جيل، و﴿ **رُوحُ الْقُدُسِ** ﴾ وهو الروح الطاهر، وهو جبريل عليه السلام، وهو من إضافة الموصوف إلى الصفة، كقولهم حاتم الجود، وعلىٌّ البيان، ونحو ذلك، وهذا مبالغة من الله فى وصفه بالطهر والصدق، وأنه رسول من الله صادق أمين وهو الذى نزل بالقرآن على قلب النبى ﷺ، كما قال تعالى: ﴿ **نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ** (١٩٣) **عَلَىٰ قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ** (١٩٤) ﴾ [الشعراء]، وقد ذكر سبحانه أن غاية نزوله أن يزيد الذين آمنوا تثبيتا على الحق؛ ولذلك قال تعالى: ﴿ **لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ التثبيت زيادة ما يكون ثابتا قوة وثباتا، ﴿ **الَّذِينَ آمَنُوا** ﴾ الذين يدركون الحق بمداركهم الفطرية، ويتجهون إليه اتجاها مستقيما، فيدركونه بمواهبهم، والشرائع السماوية تثبت الحق فى قلوبهم، ﴿ **وَهُدًى وَبُشْرَىٰ** ﴾، أى أنه ذاته هدى، وهذا

تأكيد لمعنى أنه يهدى، فهو يهدى إلى الحق وإلى صراط مستقيم، وكأنه الهداية ذاتها ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ﴾، أى هو بشرى للذين يسلمون وجوههم لله تعالى، ويخلصون للحق من غير مراء ولا جدال.

وهنا إشارات بيانية نشير إليها، فإنها تبين معانى التنزيل:

الإشارة الأولى ـ قوله تعالى: ﴿مِن رَّبِّكَ﴾، أى من الخالق البارئ الذى ربك ورباك، وربى الوجود كله، وهو الحى القيوم.

الإشارة الثانية ـ فى قوله تعالى: ﴿بِالْحَقِّ﴾، أى متلبسا بالحق، فهو الحق، وما جاء به هو الحق من عند الله، وكان فى ذاته لا يمكن أن تتمادى فيه العقول المستقيمة، فهو فى ذاته حق، كما هو فى ذاته هداية.

الإشارة الثالثة ـ الإشارة إلى أنه نازل من عند الله تعالى، ونزل به أمين طهور صادق.

ولقد راعهم ما اشتمل عليه من قصص صادق للنبيين، وعظات مرشدة هادية، وتوجيه إلى الكون، وما اشتمل عليه من مكارم الأخلاق ونهيه عن ملائم الضلال، وأمره بالوفاء بالعهد، وغير ذلك.

راعهم ذلك، وبدل أن يذعنوا للحق إذ جاءهم ماروا فيه، فإن المبطل الممارى لا تزيده الحجة إلا عنتا وإمعانا فى الضلال؛ لذلك كذبوا وافتروا، وادعوا أمرًا غير معقول، فزادوا بعدا عن الحق، وزادوا ضلالاً؛ ولذا قال عنهم، إذ رأوا القرآن واسترعاهم ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ تحداهم أن يأتوا بمثله فعجزوا، ولكن لم يقولوا إنه من عند الله، بل بالغوا فى الكذب، وأوغلوا فى الكفر، ولقد أكد الله تعالى قولهم هذا لأن غرابته تسوغ تكذيبه بادئ ذى بدء، ولذا أكد علمه سبحانه بـ (اللام) وبـ (قد)، وتأكيدًا للمعلوم، والتأكيد حيث مظنة عدم التصديق.

و﴿ بَشَرٌ ﴾، أى لم يجئ من عند الله، فلم يعلمه الله تعالى إياه، ولكن الذى علمه بشر، وعينوا ذلك البشر إنه رجل رومى كان غلاما لبعض العرب، وقيل رجلان كان يصنعان السيوف بمكة، ويقرءان الإنجيل والتوراة، وقيل غيرهما من أسماء سماها بعض المفسرين.

وقد رد الله تعالى قولهم بقوله تعالى: ﴿ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَٰذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُّبِينٌ ﴾، و﴿ يُلْحِدُونَ ﴾، أى يشيرون إليه مائلين بكلام مضطرب نحوه، والمعنى لسان هذا الرجل أعجمى فكيف يأخذ منه النبى ﷺ علما؟! وإذا كان يأخذ منه علما فكيف يمكن أن يكون هذا الكلام المبين، أى البين فى ذاته، والذى أعجزكم ببيانه حتى إنكم تقولونه فيه، إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق.

إن دليلكم يلتوى عليكم بمقدار نتائجه، فلا يجديكم شيئا أى شىء.

وقد بين سبحانه وتعالى بعد ذلك لجاجتهم فى الباطل وسببه، فقال عز من قائل:

﴿ إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ لَا يَهْدِيهِمُ اللَّهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١٠٤) ﴾.

آيات الله تعالى ثلاثة أقسام:

القسم الأول ـ الآيات الكونية وهى الآيات الدالة على أنه وحده الخالق لكل شىء، وفى كل آية دلالة على الوحدانية فالسماء وبروجها، والقمر ونوره، والشمس وضياؤها، والليل والنهار، والنعم وما فيه خلق وتكوين، كل هذه آيات الله الكبرى الدالة على أنه فعال لما يريد مختار.

والقسم الثانى ـ المعجزات التى تقترن بدعوى النبوة ويتحدى بها النبى من يكذبونه أن يأتوا بمثلها كعصا موسى، وبياض يده من غير سوء فى تسع آيات أجراها الله تعالى على يديه لقوم فرعون، فلم يؤمنوا إيمانا مستقرا، وإن كانوا فى

ضعفهم يقولون ادع لنا ربك، فيـدعو الله تعالى فيرفع عنهم المقت، ويذهب عنهم السوء، ولكن ما إن يرفعه عنهم ويؤمنهم حتى يعودوا إلى كفرهم المقيت.

والقسم الثالث ـ الآيات القرآنيـة، والإيمان بها فرع الإيمـان بمحمد ﷺ، لأن الإيمان بها الإيمان بالقرآن، والإيمان بالآيات الذى نفاه القرآن عنهم، وترتب على نفيـه نفى الإيمان والهـداية هو الإيمان بالآيات الكونيـة، والإيمان بالمعـجزة الكبرى معجزة النبى ﷺ، وهى المعجزة التى تحداهم أن يأتوا بمثلها لعجزوا.

وإنما كـان عدم الإيمـان بآيات الله مؤديا إلـى ألا يهديهم؛ لأن الهـداية إنما تكون لمن يفكرون فى آيات الله ونعمـه، ومن لا يفكر لا يهتدى فـلا يهديه، ولأن المعجزة الكبرى ضل من لا يؤمن بهـا، وهى واضحة بينة، وهى وحدها تدل على أن من يبلغهـا يبلغ عن الله فلا يهديه الله إلى الحق؛ لأنه ضل سواء السـبيل، ولم يبق إلا أن يسـيـر فى طريق الضـلال إلى نهـايتـه، ويكون له العـذاب الأليم يوم القيامة، والأليم: المؤلم.

ولقد قالوا للرسول محمد ﷺ ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُفْتَرٍ﴾، وهو المعروف بينهم قبل البعثة بالصـدق والأمانة، حـتى إن اسم الأمين إذا أطلق لا ينصرف إلا إليه، وكان لا ينادى إلا به، حتى بعـث رسـولا، ولما سأل هرقل أبا سفيان عـن صفات النبى ﷺ: «هـل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقـول ما قال، قال: لا. قال هرقل: ما كان ليدع الكذب على الناس، ويكذب على الله»[1].

فلما قال المشركون عن النبىﷺ إنه مفتر رد الله قولهم بقوله تعالت كلماته:

﴿إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ (١٠٥)﴾.

حيثمـا كان إنكار الحقائق الثابتـة كانت مظنة الكذب، فمن لا يؤمن بالآيات الثابتة لا يؤمن بالله ولا يكون صادقا أبـدا؛ لأن الكذب مباهتة الواقع الثابت، ولا

---

(١) جزء من حديث هرقل الطويل، وقد أخرجه البخارى: بدء الوحى - بدء الوحى (٦)، والبخارى: الجهاد والسير - كتاب النبى ﷺ إلى هرقل (٣٣٢٢).

يسكن الكذب إلا حيث يكون إنكار بدهيات الأمور؛ ولذلك كان الكذوب بهاتا يبهت الناس بغير الواقع، ويكابر وتشتد مكابرته للواقع الثابت بالفطرة.

ولهذا يقول تعالى: ﴿**إِنَّمَا يَفْتَرِي الْكَذِبَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ**﴾، و(إنما) أداة من أدوات القصر، فهى تتضمن نفيا وإثباتا، أى لا يفترى الكذب إلا الذين لا يؤمنون بآيات الله تعالى فى الكون ومعجزات النبيين الذين يثبتون بها إرسال الله تعالى لهم، وهى واضحة لائحة يراها المبصر ببصره، والمدرك بقلبه، فحيث كان الإنكار لما هو ثابت بالبرهان يكون الكذب؛ لأن الكذب إخفاء للحقائق، وإنكار الآيات إنكار للحقائق فهما ينسابان من نبع واحد، ويسيران فى خط واحد.

وقد أكد كذب المشركين الذين لا يؤمنون بآيات الله بقوله: ﴿**وَأُولَئِكَ هُمُ الْكَاذِبُونَ**﴾ بالإشارة إلى ما هم عليه من إنكار للبدهيات التى تومئ إليها الفطرة، والجملة تفيد القصر بأنه مقصور عليهم، ولا يمكن أن يكون الكذب فى المؤمنين، فهذا نفى للافتراء عن النبى ﷺ وتأكيد الكذب عليهم، وإفادتها قصر الكذب عليهم بتعريف الطرفين وبضمير الفصل، وكذبهم أكده سبحانه بالجملة الاسمية، وبضمير الفصل، وبوصفهم الكذب، ولقد قال ﷺ: «**إياكم والكذب، فإن الكذب يهدى إلى الفجور، والفجور يهدى إلى النار، ولا يزال الرجل يكذب حتى يكتب عند الله كذابا**»[1].

الإكراه لا يمنع الإيمان، والردة كفر بعد إيمان

قال الله تعالى:

مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا

---

(١) سبق تخريجه



فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٦﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿١٠٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴿١٠٨﴾ لَا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الْآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿١٠٩﴾

﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالإِيمَانِ وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (١٠٦)﴾.

﴿مَن﴾ في قوله تعالى: ﴿مَن كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ﴾، (من) هنا شرطية أو اسم موصول بمعنى الذى، دخلت الفاء فى الحكم، والاستثناء هنا استثناء منقطع؛ لأن من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان لم يكفر، فلا يمنع فى عموم المستثنى منه.

وجواب الشرط أو الحكم على الموصول هو قوله: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وهنا تجد الاستثناء المنقطع المانع من يعد المكره كافرا، ما دام قلبه مطمئنا بالإيمان، وقد عطف عليه ما يدل على الكفر الحقيقى وهو ﴿وَلَكِن مَّن شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا﴾، أى فتح قلبه للكفر، ﴿صَدْرًا﴾، تمييز محول عن الفاعل، وكأن الكلام، ولكن من شرح صدره بالكفر، وكان فى الموضوع حقيقتان لشخصين مختلفين؛ أولهما اطمأن قلبه بالإيمان بأن استقر فيه وارتضاه واطمأنت نفسه، فقلبه ممتلئ بالإيمان، والآخر لم يعمر قلبه وضاق عنه، وشرح صدره وفتحه للكفر، فالأول يعد مؤمنا، لم يغادر الإيمان قلبه، بل هو قار فيه، وثابت لا يتزلزل.

وإن المعركة بين الكفر والإيمان كانت قائمة بمجرد البعث المحمدى، فكان الإيمان بدلائله يغزو القلوب ويعمرها، وكان الشرك بإيذائه وفتنه، وتحويل الناس عن إيمانهم بالله ورسله والملائكة، والجنة والنار، فحذر الله تعالى المؤمنين من أن يرتدوا بعد إيمان، وذلك ببيان عاقبة ردتهم وكفرهم بعد الإيمان.

ومن الناس من لم تكن لهم همة أهل الإيمان، ولا ثباتهم، ولا مروءتهم وقوة يقينهم فذلوا بعد أن استقاموا، وهانوا بعد أن اعتزوا بالله، وهؤلاء هم الذين ينطبق عليهم الحكم الصارم، وهو قوله تعالى: ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

ومن الناس من استقاموا على الطريقة، وثبتوا وصبروا ولو أداهم ذلك إلى أن يموتوا فى سبيل الله تعالى بعذاب أليم ـ كما قتل آل ياسر ـ الذين استمروا على الآلام حتى ماتوا من شدة العذاب، ومنهم من نطق بكلمة الكفر تحت شدة العذاب، وهؤلاء هم الذين أخرجوا من زمرة الكافرين لأنهم؛ أكرهوا، وقلبهم مطمئن بالإيمان.

ومنهم من صبروا تحت الآلام فلم ينطقوا بكلمة الكفر، كبلال رضى الله تعالى عنه، فإنه كان يعذب بالوضع فى الرمضاء فى شدة الحر، ويضعون على صدره الصخرة العظيمة فى شدة الحر، ليحملوه على الشرك وهو مصرٌّ على الإيمان مطمئن القلب معذب الجسم وهو فى هذا العذاب المؤلم الممض لا ينى عن أن يقول: أحدٌ أحدٌ، ويصر عليها إغاظة لهم، ويقول رضى الله عنه لهم وهم يعذبونه: لو كنت أعلم كلمة هى أغيظ لكم منها لقلتها، واستمر على هذه المغالبة وتحمل الشدة حتى اشتراه أبو بكر الصديق رضى الله عنه وأعتقه فكان ذلك أغيظ لهم، وكذلك حبيب بن زيد الأنصارى عذبه مسيلمة الكذاب لكفره به، وإيمانه بمحمد، فلم يزل يقطعه إربا إربا، وهو ثابت لا يتزعزع.

وإن النبى ﷺ كان يبلغه من نطق بكلمة الكفر، وهو مطمئن بالإيمان، فبلغه خبر عمار، فقال: «**إن قلب عمار ملىء بالإيمان ولحمه ودمه**».

وبلغه خبر من صبر حتى قتل، فأثنى عليهم، والحق أن النطق بالكفر مع اطمئنان القلب رخصة مع بقاء العزيمة قائمة، ومن لم ينطق فقد أخذ بالعزيمة، ولكل ثوابه، ولكن ثواب من صبر ثوابان: ثواب الصبر وثواب إغاظة الكفار.

وقد ذكر سبحانه عقاب من كفر بعد إيمان وقد شرح صدرًا للكفر، فذكر له عقابين:

العقاب الأول ـ ﴿فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِّنَ اللَّهِ﴾، أى أن الغضب ينزل عليهم نزول الصاعقة؛ إذ إنهم شارفوا، فجذبهم الكفر، وولاهم الشيطان فنزل عليهم غضب الله، وذكر الغضب فى هذا المقام، فيه إثارة أى بإرضائهم للمشركين بعودتهم إلى الكفر، قد أغضبوا الله، وشتان بين إرضائهم للكافرين، وإغضابهم لرب العالمين، ولا يرجى، ولا أحق بالرضوان غيره.

العقاب الثانى: أن لهم عذابًا عظيما فقال: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ التنكير فى عذاب ووصفه بأنه عظيم يفيد أنه عذاب عظيم جدير بأن يهدد به ويهول أمره، وقوله تعالى: (لهم) فيه إشارة إلى أنهم لا يملكون بهذه الردة خيرا، بل يملكون عذابًا عظيما أكبر وأعظم مما كان ينزل بهم من عذاب لو استمروا على الإيمان.

وقد ذكر سبحانه سبب ذلك العذاب فقال:

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (١٠٧)﴾.

الإشارة إلى الغضب من الله تعالى الذى ينزل بهم، والعذاب العظيم يحل بهم بسبب أنهم ﴿اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ استحبوا إنما طلبوا حبها، فاستغرقت نفوسهم، ولم يفكروا فى غيرها، وآثروها على الآخرة، فابتغوها بأى ثمن يقدم، ورضوا بأن يحطوا على هوى المشركين، ولو أغضبوا رب العالمين، وذكر الله سبحانه وتعالى سببا ثانيا، غير استحباب الدنيا وإيثارها على الآخرة وذلك السبب أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ وذلك أنهم

ساروا فى طريق واستمروا فى حياة اللهو والعبث وأغواهم الشيطان، حتى سد كل مسالك الهداية إلى قلبه، فكفر بأنعم الله، وأنكرها بعد معرفتها، ولم يشكر، والله لا يهدى القوم الكافرين، فقوله تعالى: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ تومئ إلى كل هذا، سبحانه وتعالى، وتقدست كلماته، وأعجز بيانه.

ذكر الله تعالى ما سجله عليهم، وهو عقاب فى ذاته، وسبب لعقاب، فقال تعالى:

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

إن أولئك هداهم الله إلى الإيمان، ثم كفروا تمرد نفوسهم على الباطل وتلج فيه، فتفسد فيها مسالك الإدراك؛ ولذا قال تعالى فيهم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ اللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلاً (١٣٧)﴾ [النساء]؛ ولذا وصفهم الله تعالى بقوله.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ (١٠٨)﴾.

الإشارة إلى هؤلاء الذين كفروا بعد إيمان، والإشارة إلى الموصوف بصفة إشارة إلى هذه الصفات، والإشارة إلى الصفات تفيد أن هذه الصفات هى علة الحكم، وإن الكفر بعد إيمان إذا تكرر تجعل النفس تمرض بفساد الإدراك لأن الكفر بعد الإيمان من شأنه أن يضعف فى القلب معنى الإيمان، فيضعف إدراك الحق، ويصبح الشخص حائرا بائنا لا يتحرك ضميره، ولا تستيقظ نفسه، ولا يستبصر بما تبصر، ولا يدرك حق الإدراك ما يسمع، فكأنه قد طبع على مداركه بطابع يمنع المدارك من أن يصل إليها شيء من الفهم والعلم فيبصر الكائنات ولا يعلم ما تدل عليه، ويستمع إلى القرآن، ولا يعلم ما يهدى إليه، ويحق عليهم قول الله تعالى:

﴿ ... لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ... (١٧٩) ﴾ [الأعراف].

وإن هذه عقوبة طبيعية لما أركسوا فيه، فهى نتيجة لما ترددوا فيه من كفر بعد إيمان، وهى سبيل لعقاب دائم، وعذاب واصب، وهذا يؤدى إلى أن يكونوا فى غفلة دائمة عن كل ما يعلو بالإنسان، فهم قد فقدوا معنى الإنسانية العاقلة المدركة التى تتحمل التبعات، وتعرف التكليفات التى هى ضريبة الإنسانية ومعناها؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ حكم الله تعالى عليهم بهذا النص، والإشارة إلى الموصوفين بالكفر بعد الإيمان، والصفة هى علة الحكم، وهو الحكم عليهم بالغفلة الدائمة التى تصير وصفا لهم منحصرا فيهم، وهم محصورون فيه، وقد أفاد القصر أى قصرهم فى الغفلة، وقصر الغفلة عليهم، تعريف الطرفين، وتأكيد القول بضمير الفصل، مع تأكيد القصر.

وإنهم مع هذه الغفلة التى صارت وصمة لازمة قد خسروا كل شيء، ولذا قال تعالى:

﴿ لا جَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ (١٠٩) ﴾.

﴿ لا جَرَمَ ﴾ ذكرنا أصل معناها، وأن تنتهى إلى أن معناها حقا، وهى تأكيد لهم بأنهم فى الآخرة هم الخاسرون، والعبادة تفيد قصرهم على الخسارة، فهم إذا كانوا قد خسروا فى الدنيا مداركهم فطمس عليهم فخسارهم فى الآخرة أشد وأعظم، وهم مقصورون فى الخسارة، والخسارة مقصورة عليهم... اللهم قنا عذاب النار.

إن ربك للمؤمنين يوم الحساب

قال الله تعالى:

﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠) ۞ يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ (١١١) وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ (١١٣)﴾

ذكر سبحانه وتعالى حال الذين كفروا بعد إيمانهم، وكيف نزل عليهم غضب وطبع على قلوبهم وسمعهم وأبصارهم. بأنهم غفلوا واستغرقتهم الغفلة، وكانوا هم الخاسرين، وحدهم، بعد ذلك ذكر حال الذين آمنوا وفتنوا، وأوذوا وهاجروا في سبيل الله، فقال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٠)﴾.

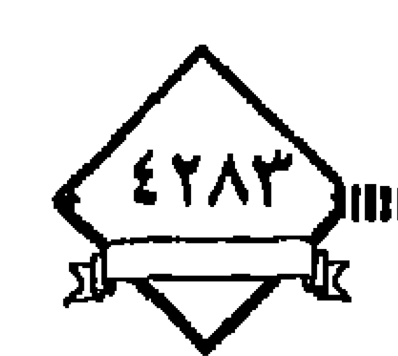
﴿ثُمَّ﴾ هنا للعطف، والتباين بين فريقين شرح صدر الكفر آذى غيره، وفريق ثبت على الإيمان، وصبر على الأذى، وهاجر.



و﴿ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ هَاجَرُوا ﴾، فيها معنى الحماية الكاملة، والاعتماد على ركن لا خلل فيه فقط، كما يقول القائل للسارقين ما سرقوا، ولذى المال ما ملكوا، ولكل إنسان ما يملك من مال ونسب، وأما المؤمنون الصادقون فى إيمانهم فلهم الجنة، فمعنى هذه الجملة السابقة أن قوتهم وحمايتهم من الله فقط؛ ولذا قدم قوله تعالى: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ على الجار والمجرور، لبيان مكانة ناصرهم، وأنه فوق النصراء جميعا، فإذا كان الأقوياء قد آذوهم، وأعنتوهم، وحرموا الهناءة، إلا أن تكون قلوبهم عامرة بذكر الله وقوله: ﴿ لِلَّذِينَ ﴾ بـ (اللام) للاختصاص، أى أنهم مختصون به دون غيرهم.

وقال تعالى: ﴿ مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ﴾ الفتن يكون للمعدن ليخرج ما خالطه من مواد مغايرة لجوهره، وفتن المؤمل تمحيصه، وأن تذهب كل ما عساه يعلق به من أدران الدنيا، والهجرة الواضحة هنا أنها هجرة الأولين إلى الحبشة، ويصح أن يراد الهجرة إلى الحبشة والمدينة وإذا كانت السورة مكية، فهى تنبئنا بالهجرة إلى المدينة التى كانت أول الجهاد ومن كان الجهاد، وقوله تعالى بعد ذلك: ﴿ ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ إخبار أنه سيكون جهاد بحمل السيف، والغزوات المباركة، والسرايا التى كان يبعثها النبى ﷺ للجهاد والدعوة وإن عطف وصبروا على الجهاد مع أن الجهاد عدته الصبر أولا، وإعداد الأدوات بالمحل الثانى، إن هذا العطف يفيد أن المؤمن يختبر بأمرين الصبر، وهو مختبر به دائما، وقد كان قوة المؤمنين وهم بمكة، وثانى الأمرين الجهاد فى سبيل الله بحمل السيف مدافعا، محاربا، وهذا يحتاج الصبر، كما قال الله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٢٠٠) ﴾ [آل عمران].

وبعد أن ذكر سبحانه وتعالى أنه للمؤمنين، فى مقابل أن الذين كفروا بعد إيمانهم للشيطان ذكر سبحانه أخص صفات الذات العلية وهو أنه غفور رحيم، فقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ الضمير فى ﴿ بَعْدِهَا ﴾ يعود إلى الهجرة، ذلك لأن الهجرة بعد صقل النفوس بالفتنة تتجه إلى الله، وقد سترت كل ذنوبها،



فيكون الخلاص لله تعالى، ومن بعد ذلك يكون الغفران، وتكون الرحمة بالنصر في الدنيا، والجنة في الآخرة.

وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ يفيد أموراً أربعة:

الأمر الأول ـ تكرار الربوبية، وفي ذلك دلالة على أنه مع المؤمنين دائما ولا يتركهم، وهو ربهم والمتولى أمورهم.

الأمر الثاني ـ تأكيد هذه الصلة بالعبودية والربوبية بعد الهجرة، كما كانت قبلها.

الأمر الثالث ـ تأكيد المغفرة والرحمة، فقد أكد بالجملة الاسمية، وإن واللام.

الأمر الرابع ـ دوام الرحمة والمغفرة؛ ولذا كان بصيغة المبالغة الدالة على دوام رحمة الله بالمؤمنين، وذكر الغفران لما عساهم يكون منه من عبارات موهمة لمطاوعة المشركين وقد خص الغفران والرحمة بيوم لا يجدى فيه غير غفران الله تعالى ورحمته، ولذا قال:

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ (١١١)﴾.

يوم منصوب على الظرفية، للوصفين السابقين، أى إن ربك غفور رحيم، في هذا اليوم الذى يحاسب كل إنسان على ما قدم في الدنيا من عمل، وكل إنسان يدافع عن نفسه؛ ولذا قال تعالى: ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾، أى تدافع كل نفس أو تبين كل نفس، والمجادلة: المحاجة، أى تحاج كل نفس عن نفسها فيما نسب إليها فتحاج كل نفس بنفسها عن نفسها فلا يكون معها ولى ولا شفيع، ولا نصير، ولا فدية ولا عدل، بل تكون هى المسئولة عما فعلت وارتكبت، وأعمالها محصية ثابتة، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ

طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنشُورًا (١٣) اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا (١٤) ﴾ [الإسراء].

وقوله تعالى: ﴿ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا ﴾، أى يحضر الأنفس، وتسأل عما قدمت، وتنطق عليهم أيديهم وألسنتهم، فالحساب تكون أدلته مهيأة ثابتة، ولا يكون إلا الحكم، والحكم لله الواحد القهار فلا نقص لحكمه.

﴿ وَتُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ ﴾، والمراد جزاء ما عملت، ولكن لأن الجزاء عدل وفاق للعمل، ويساويه تمام المساواة عبر بالعمل بدل الجزاء، إذ هى شىء واحد، أو متساويان تساويا مطلقا، وأكد الله سبحانه المساواة والوفاق بين العمل وجزائه فقال، ﴿ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾، أى لا ينقص من عملهم شىء، فلا ظلم؛ لأن الحاكم هو الله، وهو خير الفاصلين.

ولقد ضرب الله تعالى المثل للكفران بالنعمة ومآلها والأمثال تضرب للناس لعلهم يعقلون، فقال:

﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ (١١٢) ﴾.

جعل حال قرية مثلا مصورا لمن يكون فى رغد العيش والأمن والاستقرار، ثم يكفر بنعمة الله لينزل عليه البلاء فيحرم نعمة الاطمئنان، ويستبدل بها خوفا، أو يحرم رغد العيش، ويستبدل به جوراً، وجعل المثل حال قرية ـ وهى المدينة الكبيرة لمكة ـ الدنيوى خسفا أو زلزالا، أو أمطار الحجارة فقط، بل قد يكون العقاب الدنيوى ضيقًا فى الرزق بعد السعة، وخوفا بعد أمن، وهذا مجمل معانى النص القرآنى؛ ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ ﴾ ﴿ وَضَرَبَ ﴾، أى بين، ﴿ مَثَلاً ﴾، أى حالا ثابتة، ﴿ قَرْيَةً ﴾ وهى مفعول وأخرت عن ﴿ مَثَلاً ﴾، وهى المفعول الأول؛ وذلك لأن الأوصاف التى تجىء بعد ذلك كانت أوصافا فى القرية، وهو مورد المثل وموضعه، ولأن ذكر المثل بها ثم ذكر مورده وموضعه يكون بعد ترقب واستشراف فيكون أمكن فى النفس والفؤاد.

وهذه القرية وصفها الله تعالى بأنها كانت آمنة كما كانت مكة، فقد كان فيها حرم آمن يتخطف الناس من حوله وكان يأتيها رزقها رغدا واسعا كثيرا إذ كان يجبى إليها من الثمرات استجابة لدعوة إبراهيم عليه السلام، وإذ قال سبحانه: ﴿رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِّنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُم مِّنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ (٣٧)﴾ [إبراهيم].

وقال تعالى فى هذه القرية: ﴿فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أنها بدل أن تشكر نعمة الله إذ منحها الأمن والعيش الرغد الهنيء، وهذا أقصى ما يطلب لمثل هذه القرية، بدل هذا كفرت، أى رتبت على النعمة الكفر بها، وهذا عكس ما يترقب، ويتوقع منها. فكان هذا فيه معنى التوبيخ أو التهكم بأمرها، والأنعم جمع نعمة، أو جمع نعمى، والمعنى النعم العالية التى بلغت أقصاها.

وقوله تعالى: ﴿فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ﴾، فى الكلام استعارتان:

الاستعارة الأولى: ـ أنه شبه الجوع والخوف باللباس السابغ الذى يغشى الداخل والخارج، وذلك بجامع اشتماله على الجسد والنفس، وكل الجوارح، فإن اللباس يغشى الجسم كله، والخوف والجوع يغشيان الجسم كله، فالخوف يغشى الجسم بالاضطراب والهلع والجزع، والجوع يغشاه بالضعف والحاجة، وهى كالعرى، أو كالثوب الذى لا يستر.

والاستعارة الثانية ـ هى تشبيه الجوع والخوف بالشىء الذى يذاق جريًا على ما يجرى على الألسنة من قول فلان ذاق مرارة الجوع، وقد قال فى ذلك إمام البلاغة الزمخشرى: «أما الإذاقة فقد جرت عندهم مجرى الحقيقة فى البلايا والشدائد، وما يمس الناس منها، فيقولون: ذاق فلان البؤس والضر وأذاقه العذاب شبه ما يدرك من أثر الضرر والألم بما يدرك من طعم المر.

هذه خلاصة ما يقال فى هذا المثل الرائـع، وتلك الحكمة المباركة، وهو مثل يعطى صورة بيانية رائعة لمحكم القول.

وقد أسهب الزمخـشرى فى بيان الاستعارة حتى قال الناصـر أحمد بن المنير الذى يتعقبه بالنقد اللائم: قال أحمـد: «وهذا الفصل من كلامه يستحق أن يكتبوه بذوب التبر، لا بالحبر».

وقد ذكر ابن كثير أن المثل ينطبق على أهل مكة، قد كانوا يعيشون آمنين فى رغد، ولكنهم اضطهدوا المؤمنين وآذوهم واستعصوا على رسول الله ﷺ فنزل بهم البلاء، وحق فيـهم قول الله تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ بَدَّلُوا نِعْمَتَ اللَّهِ كُفْرًا وَأَحَلُّوا قَوْمَهُمْ دَارَ الْبَوَارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ [إبراهيم]، ودعـا عليهم رسـول الله ﷺ: **«اللهم اشدد وطأتك على مضر، واجعلهـا عليهم سنين كسنى يوسف»**[1]، وقد أصابهم الجوع الشديد.

دع عنك أن النبى ﷺ قد سد عليهم مسالك تجارتهم حتى أحسوا بنعمة الله عليهم، وذلك كله بين الله بسببه بقوله تعالت كلماته: ﴿ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾، أى بسـبب الذى كـانوا يصنعونه مـن شرك وصـد عن سـبيل الله تعـالى، ولعنتـهم للمؤمنين، وحملهم على الردة بعد إيمان.

وإنهم مع هذه الحال أرسل إليهم رسولا من أنفسهم فكذبوه، وقد قال تعالى فى ذلك:

﴿ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ الْعَذَابُ وَهُمْ ظَالِمُونَ ﴿١١٣﴾ ﴾.

جاءهم رسول منهم عرفوا صدقه، وأمانته، إذا انشأ بينهم وليدا عفا لم يُزَنَّ بريبة، ولم يسجد لصنم حتى بُعث فيهم رسولا، هذا ما تتضمنه كلمة ﴿ مِّنْهُمْ ﴾،

---

(١) صحيح البـخارى: الأذان - يهوى بالتكبير حين يسـجد (٧٦٢)، ومسلم: الجهاد والسـير - الدعاء على المشركين بالهزيمة والزلزلة (٢٧١٥).

فليس غريبا عنهم، وذلك كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٢٨)﴾ [التوبة].

ولقد أكد سبحانه بعثه ﷺ فيهم بـ (اللام) وبـ (قد)، وقال: ﴿جَاءَهُمْ﴾، أى بعث ابتداء فيهم، وتنكير ﴿رَسُولٌ﴾ للتعظيم، وإلى مكانته عند الله، وعندهم لأمانته وعفته ولصدقه، ولكنهم بدل أن يعاجلوا بالإيمان عاجلوا بتكذيبه، فـ (الفاء) للترتيب والتعقيب، أى أن النتيجة جاءت على نقيض المقدمات؛ إذ أنه كان معروفا بالصدق والأمانة، فكان الواجب أن يبادروا بتصديقه، ولكنهم بادروا بتكذيبه، وعقب التكذيب أخذهم العذاب، إذ أخذوا فى أسبابه، وهو التكذيب والصد عن سبيل الله وإيذاء المؤمنين.

والعذاب هو عذاب الدنيا بالتقتيل فيهم وهزيمتهم، وذهاب سيطرتهم، وقيام الحق رغم أنوفهم، هذا فى الدنيا، أما فى الآخرة فبالعذاب الأليم، وإلقائهم فى الجحيم.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾، الواو للحال، أى والحال أنهم ظالمون، فالعذاب نزل بهم، وهم أحق به، فهو بما كسبوه من تكذيب الحق، وتجاوزوا حد التكذيب إلى الظلم إذ صدوا عن سبيل الله وفتنوا المؤمنين فى إيمانهم وعذبوهم، وحاولوا أن يردوهم عن دينهم فارتدوا خاسئين.

الرزق الحلال الطيب

قال الله تعالى:

فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلَالًا طَيِّبًا وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ (١١٤) إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا

أُهِلَّ لِغَيْرِ ٱللَّهِ بِهِۦ فَمَنِ ٱضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٥﴾ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ۖ وَمَا ظَلَمْنَٰهُمْ وَلَٰكِن كَانُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴿١١٨﴾

إذا كانت نعمة الله لأهل القرى فى الأمن ورغد العيش، فهى نعم لإباحتها، لا لمنعهم منها ولذا كان النص بإباحتها لتتم سبحانه نعمته على عباده، وكان ابتداء القول بالفاء؛ لأنه مترتب على النعمة، فقال سبحانه: ﴿فَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا﴾ الأمر للإباحة لا للوجوب، إلا إذا كان الأمر يطلب الأكل بالكل لا بالجزء فالأكل بالجزء مباح أى له أن يأكل من نوع كذا أو كذا أو فى وقت كذا، دون وقت كذا فهذا مباح فيه أن يختار ما يشاء، أما ترك الأكل بالكل بألا يأكل قط فحرام؛ ولذا كان الأكل مباحا بالجزء أو النوع، ومطلوبا طلبا لأمر بالكل، كما أنه محرم أن يحرم صنفا معينا من الحلال على نفسه كالذين حرموا البحيرة والوصيلة والحام، وقد وصف سبحانه وتعالى الأكل الذى وصفه الله تعالى وأعطاه ومكن منه بوصفين:

الوصف الأول ـ أنه حلال، والثانى: أنه طيب، والحلال أن يكون كسبه لا خبث فيه، فالكسب بالربا أو الرشوة والميسر، أو التغرير، أو السرقة أو الاغتصاب، أو الخمر كل هذا ليس برزق حلال؛ لأنه كسب خبيث، وكذلك أكل ما سمى عليه اسم غير الله من صنم أو صليب، أو معبود غير الله أيا كان.

وأما الوصف الثانى ـ فهو أن يكون فى ذاته طيبا لا خبيثًا فى ذاته، فلا يؤكل الخنزير ولا الميتة، ولا الدم ولا ما تعافه النفوس، ومن ذلك سباع الطير،

وسباع البهائم، فإن لحم هذه وما يشبهه لحم خبيث، فكل ما حرمه سبحانه من مأكول خبيث الذات يضر الجسم وتعافه النفس.

وإن هذه النعم التى هيأها الله تعالى وأباحها توجب الشكر؛ ولذا جاء الأمر بالشكر بعد الإباحة، فقال تعالى: ﴿ وَاشْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ وشكرها بالقيام بالواجبات، من عبادة وامتناع عن الشرك، والتصدق منها لله تعالى، وإطعام القانع والمعتر، وأن يكون كل ذلك لوجه الله تعالى لا يبتغى سواه، ولا يطلب إلا وجهه الكريم.

ولذا قال بعد ذلك: ﴿ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ ﴾ تقديم الضمير يفيد التخصيص فالمعنى إن كنتم لا تعبدون إلا الله سبحانه وتعالى. وذكر الوحدانية بعدها فيه إشارة إلى أن تناول هذه النعم من غير تحريم لبعضها، هو من عبادة الله تعالى، ذلك أن الانتفاع بأى نعمة مع الشعور بعظمة المنعم واستحقاقه الشكر، والتناول طاعة لأمره، واستجابة لطلبه هذا فى عباده، ففى الانتفاع بكل نعمة منحها للاستجابة للمنعم عبادة، حتى فى بضع أحدكم صدقة.

وبين الله تعالى المحرمات من الخبائث فقال:

﴿ إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالدَّمَ وَلَحْمَ الْخِنزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلَا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١١٥) ﴾.

﴿ إِنَّمَا ﴾ أداة قصر أى أن المحرم عليكم من النعم ونحوها الميتة والدم ولحم الخنزير، إذا أهل لغير الله به، أصناف أربعة هى: **الميتة** وهى التى كانت قد حبس دمها فيها، ويدخل فيها الموقوذة والنطيحة، فإنها كالتى ماتت حتف أنفها، إذ لم تذك التذكية الشرعية، وحبس الدم فيها ولم يرق، **والدم**، وهو الدم المسفوح، وقد ذكر هنا مطلقا، وذكر مقيدا فى آية الأنعام فى قوله تعالى: ﴿ قُل لَّا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَىٰ طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَن يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَّسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ ... (١٤٥) ﴾ [الأنعام].

ولحم الخنزير إذ إنه نجس بذاته، **وما أهل به لغير الله** وهو المذبوح لغير الله.



ومن المقررات أنه إذا اتحد المسبب والحكم، وجاء اللفظ فى أحد الموضعين مطلقا، وفى الآخر مقيدا حمل المطلق على المقيد.

وهذه الآية الأخيرة تفيد أن تحريم هذه الأشياء لأنه رجس، وفيها ضرر جسمى إذ هى قاذورات خبيثة، وما أهل لغير الله كان تحريمه لأنه فسوق وخروج عن التوحيد؛ لأنه ذكر غير اسم الله تعالى عليه.

وهذا التحريم فى حال الاختيار، أما فى حال الاضطرار فإنه يرخص فيه الأكل، ولذا قال تعالى: ﴿**فَمَنِ اضْطُرَّ غَيْرَ بَاغٍ وَلا عَادٍ فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾، أى فإنه يرخص الأكل، وإن الله تعالى يغفر الإثم لأن الله يرفعه بمغفرته وبرحمته

وقد اشترط للإباحة شرطان، أو ذكر الترخيص مقرونا بوصفين:

الوصف الأول ـ أن يكون ﴿**غَيْرَ بَاغٍ**﴾ طالب له يشتهيه، وهذا الوصف تحقيق للضرورة؛، لأنه إذا كان يبتغيه وهو فى فسحة من العمل لا يكون مضطرا، ولأنه إذا كان يبتغيه يتجاوز حد الضرورة.

والوصف الثانى ـ ﴿**وَلا عَادٍ**﴾، أى متجاوز حد الضرورة.

وقد قالوا إن هذه رخصة إسقاط؛ لأنه قد سقط عنه التحريم بهذه الضرورة، وقالوا إن الأكل فى هذه الحال واجب، وليس بمباح فقط؛ لأنه يتردد بين أمرين أحدهما أقوى تحريما من الآخر:

الأمر الأول ـ الأكل.

والأمر الثانى ـ تلف النفس ولا شك أن تلف النفس أقوى تحريما من الأكل.

وقال أهل الطب إن تحريم هذه الأشياء لما فيها من رجس وقذر، وذلك يضر الجسم، فإذا كان الجسم فى حال جوع شديد ومخمصة كان هذا الجوع مخففا لأضرارها، وكان الأخذ منها لا ضرر فيه لحال الجوع الشديد، فيأخذ من غير تعد ولا شهوة أكل، ولا تجاوز لحد الضرورة، فإن تجاوزها كان الضرر، وتحقق الرجس والقذر.

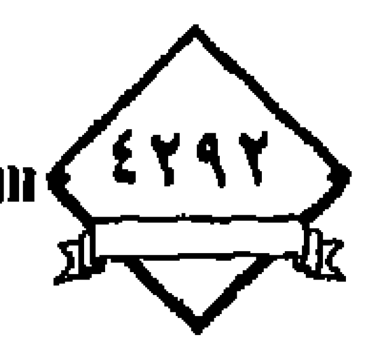
وقد كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض المحللات من الأنعام فنهى الله عن ذلك وقال:

﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ (١١٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧) ﴾.

كان المشركون يحرمون على أنفسهم بعض ما تخرجه الأرض وبعض النعم، وينسبون ذلك كذبا إلى الله، ولنرجع إلى ما في سورة الأنعام إذ يقول الله سبحانه: ﴿ وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا فَقَالُوا هَذَا لِلَّهِ بِزَعْمِهِمْ وَهَذَا لِشُرَكَائِنَا فَمَا كَانَ لِشُرَكَائِهِمْ فَلَا يَصِلُ إِلَى اللَّهِ وَمَا كَانَ لِلَّهِ فَهُوَ يَصِلُ إِلَى شُرَكَائِهِمْ سَاءَ مَا يَحْكُمُونَ (١٣٦) ﴾ [الأنعام]، ﴿ وَقَالُوا هَذِهِ أَنْعَامٌ وَحَرْثٌ حِجْرٌ لَا يَطْعَمُهَا إِلَّا مَنْ نَشَاءُ بِزَعْمِهِمْ وَأَنْعَامٌ حُرِّمَتْ ظُهُورُهَا وَأَنْعَامٌ لَا يَذْكُرُونَ اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا افْتِرَاءً عَلَيْهِ سَيَجْزِيهِمْ بِمَا كَانُوا يَفْتَرُونَ (١٣٨) وَقَالُوا مَا فِي بُطُونِ هَذِهِ الْأَنْعَامِ خَالِصَةٌ لِذُكُورِنَا وَمُحَرَّمٌ عَلَى أَزْوَاجِنَا وَإِنْ يَكُنْ مَيْتَةً فَهُمْ فِيهِ شُرَكَاءُ سَيَجْزِيهِمْ وَصْفَهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ (١٣٩) ﴾ [الأنعام].

قد بين سبحانه ما أحله وما حرمه، ولكنهم كانوا يحرمون ما أحل الله، وينسبون التحريم إليه سبحانه وقد كذبهم الله تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ نذكر أوجه التخريج النحوى فى الآية الكريمة وننتهى إلى وجهين نذكرهما:

الوجه الأول ـ أن ﴿ الْكَذِبَ ﴾ مفعول لقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا ﴾، أى لا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم، وقوله تعالى: ﴿ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ ﴾ و﴿ هَذَا ﴾ بدل من ﴿ الْكَذِبَ ﴾، ويكون المعنى ولا تقولوا الكذب للذى تصفه ألسنتكم بالحل والحرمة، وهذا حكم عليهم بالكذب فى ادعائهم الحلال والحرام من غير حجة ولا علم.



الوجه الثانى ـ أن يكون الكذب مفعولاً للمصدر، ويكون المعنى ولا تقولوا لوصفكم الكذب هذا حلال وهذا حرام.

ومؤدى التوجيهين أنه لا يصح أن تقولوا هذا حلال وهذا حرام، فإن ذلك الوصف هو الكذب بعينه ما دام لم يجئ من الله بيان فيه، ولأنه قد ثبت ما أحل وما حرم، فما عدا ما قاله الله باطل باطل، ولذا قال تعالى: ﴿لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ﴾، (اللام) هنا هى لام الصيرورة أو لام العاقبة، والمعنى لا تفعلوا ذلك؛ لأن العاقبة أن تفتروا على الله الكذب. (افترى) أى قصد باهتا الكذب وتعمده وأزاد، وقد ختم الله تعالى الآية بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ أكد سبحانه بأنه لا يفلح الذين يقصدون الكذب على الله تعالى ويتعمدون ويبهتون الناس بالكذب عليه سبحانه، وذلك لأنهم يكونون قد مردوا على الكذب، وفسدت مداركهم إذ ماعت نفوسهم فصارت لا تتجه إلى الحقائق ولا تستقر فيها الحقائق، ولا يؤمنون بحق، ولا يرفضون الباطل، إذ من تصل حاله إلى الكذب على الله لا يمكن أن يفوز فى أمر من الأمور؛ ولذا قال: ﴿لا يُفْلِحُونَ﴾، أى ليس من شأنهم أن يفوزوا.

وقد ذكر الموصول للدلالة على أن الصلة هى السبب فى عدم الفوز، وأكد سبحانه عدم الفوز بالجملة الاسمية وإن المؤكدة، وإذا كنا نراهم قد مردوا على الكذب وصار شأنا من شئونهم فلا مانع يمنع من الكذب على الله سبحانه وتعالى، أى كذب أعظم من أن يحرموا ويدّعوا أن الله هو الذى حرم عليهم.

وقد بين سبحانه فى تأكيد عدم فوزهم أنهم يحسبون بريق الحياة ومتاعها هو المتاع، وبين الله تعالى أن متاعها قليل؛ لأنه فى ذاته قليل وزمانه قليل ومتاع الآخرة هو الأبقى ومن طلب متاع الدنيا بغير الحق فالآخرة تكون له عذابًا أليمًا؛ ولذا قال تعالت كلماته: ﴿مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (١١٧)﴾.

التنكير فى ﴿مَتَاعٌ﴾ يدل على قلته فى ذاته وقلته فى زمانه وهو بجوار الكذب الذى يكذبونه لا يعد متاعًا؛ لأن المتاع ما يقوم على متاع النفس، والنفس

الكذوب تكون فى اضطراب مستمر ولا تملك نفسها كما لا تنضبط فى ذاتها، ودأبها على الكذب يؤدى إلى ضلال الفكر فيها حتى يصيبها خرف الكذب وفساده.

﴿ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ بعد هذا المتاع الضئيل وهو عذاب دائم ليس له وقت محدود بل هو محدود بحدود الله، وما من قارئ يقرأ هذه الهداية إلا امتنع عن الهجوم بقوله حلال وحرام إلا إذا كان النص على التحريم من قرآن أو أحاديث النبوة، ولقد كان إبراهيم النخعى، وهو من أئمة فقه الرأى كان إذا وصل برأيه إلى حكم يفيد التحريم لا يقول: حرام، ولكن يقول أكره، وإذا وصل بقياسه إلى حكم يفيد الحل قال ليس من بأس، أو استحسن هذا متحرجا أن يقول حرامًا أو حلالاً لكى لا يكون ممن دخلوا فى حكم هذه الآية.

وقال ابن العربى: «كره مالك وقوم أن يقول المفتى: هذا حلال، وهذا حرام فى المسائل الاجتهادية، فلم أزل أخاف الفتيا إلى يومى هذا»،

وقد رأينا فى هذا الزمان من يقول فى أمور هى حرام بالنص إنها حلال، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم.

بين الله ما أحل وما حرم، ثم حرم الله تعالى على اليهود بعض أمور، وكان التحريم خاصا بهم دون غيرهم فطْمًا لنفوسهم الشهوانية الظالمة، وقد أشار سبحانه إلى هذه المحرمات فى قوله تعالى:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (١١٨) ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِن قَبْلُ ﴾، أى ما أخبرناك بتحريمه من قبل، وهذا يدل على أن هذه الآية فى سورة النحل متأخرة عن التحريم على اليهود فى سورة الأنعام، وذلك النص فى سورة الأنعام:

﴿ وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفُرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلاَّ مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوِ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ (١٤٦) ﴾ [الأنعام].

وفى هذه الآية التى سبقت فى سورة الأنعام ذكر سبحانه أن ذلك كان قَطْمًا لأهوائهم وشهواتهم وبغيهم، فكان التحريم تأديبا لهذه النفوس أو تقوية لإراداتهم ومنعا لأهوائهم وشهواتهم؛ ولذا قال فى الآية الكريمة التى نتولى ذكر معانيها الحكيمة ﴿ وَمَا ظَلَمْنَاهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، أى وما ظلمنا بذلك المنع الجزئى، بل هم الذين بغوا، وأكثروا فيها الفساد، وأدى ذلك إلى ظلمهم؛ ولذا قال تعالى: ﴿ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ ﴾، الاستدراك هنا لتأكيد نفى الظلم، وإثبات الظلم عليهم هم، وتقديم ﴿ أَنفُسَهُمْ ﴾ على ﴿ يَظْلِمُونَ ﴾ للدلالة على الاختصاص، أى لا يظلمون أحدا غير أنفسهم.

التوبة بعد العصيان ومكانة إبراهيم

قال الله تعالى:

ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِ ذَٰلِكَ وَأَصۡلَحُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٌ ﴿١١٩﴾ إِنَّ إِبۡرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةٗ قَانِتٗا لِّلَّهِ حَنِيفٗا وَلَمۡ يَكُ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٠﴾ شَاكِرٗا لِّأَنۡعُمِهِۚ ٱجۡتَبَىٰهُ وَهَدَىٰهُ إِلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ﴿١٢١﴾ وَءَاتَيۡنَٰهُ فِي ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗۖ وَإِنَّهُۥ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ لَمِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٢٢﴾ ثُمَّ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ أَنِ ٱتَّبِعۡ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۖ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ﴿١٢٣﴾

إن الله تعالى يغفر الذنوب جميعا لمن تاب وآمن وعمل صالحا؛ ذلك أن بتوبته فى وقتها عبادة، وقد قال تعالى: ﴿ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾.

﴿إِنَّ رَبَّكَ﴾ الذى خلق الناس أجمعين ورباهم وهذبهم ﴿لِلَّذِينَ عَمِلُوا﴾، أى هو لهم يمنعهم من الاسترسال فى الشرور والفساد، كما تقول: السلطان لفلان هو ينصره، ويحميه من أعدائه ولا يسلمه لهم، وقد ذكر أنه سبحانه لهؤلاء الذين عملوا السوء، بشرطين:

الشرط الأول ـ أن يكون بجهالة.

والشرط الثانى ـ أن يتوبوا ويعملوا الصالح بأن يصلحوا فى ذات أنفسهم، بأن يزول من نفوسهم، كل أدران السوء، وترحض عن قلوبهم كل ما عملوا من آثام مبطنة، وأن يذهب ما اربدت به نفوسهم، وتطهُر.

والسوء كل ما هو فى ذاته ليس بطيب، ويسوء النفس وغيره، والجهالة هى عدم تدبير الأمر، وعدم تعرف عواقبه بأن يندفع تحت تأثير شهوة جامحة، أو هوى متبع، فإذا تدبر تاب من قريب، وهذا قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَٰئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا (١٧) وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّىٰ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ أُولَٰئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا (١٨)﴾ [النساء].

وقال تعالى فى الشرط الثانى: ﴿ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا﴾، أى قاموا بحق التوبة النصوح، وهى تقتضى أمورا ثلاثة:

الأمر الأول ـ الندم على ما حصل من سوء، وذلك علم بالحق بعد الجهالة، وثوب إلى الله تعالى بعد الابتعاد.

والأمر الثانى ـ العزم على ألا يعود إلى ذنب أبدا، ذلك لأجل غسل ما اعترى القلب من أدران، وتنظيفه من السيئات وآثارها.

والأمر الثالث ـ أن يكون ذلك من قريب؛ لأن القدم يثبت الشر فى النفس، ويجعل إزالة درنه ليس يسيرا.

ثم بعد هذه التوبة بشروطها لا بد من العمل الصالح؛ لأنه لا يزيل عمل السوء إلا العمل الصالح فيحل الخير محل الشر، وإنه عند تحقق هذه الأمور، وتوجها العمل الصالح كان الغفران وكانت الرحمة، ولذا قال: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ وهنا عدة أمور بيانية:

الأمر الأول ـ التعبير بـ﴿**ثُمَّ**﴾ فى أول الآية لما بين الذين يصرون على الذنوب ويعاندون الحق، ويسرفون على أنفسهم، وبين الذين يتوبون من قريب عن فعل فعلوه بجهالة، فكان لـ﴿**ثُمَّ**﴾ موضعها فى هذا، وكذلك الأمر فى ﴿**ثُمَّ**﴾ الثانية، ﴿**ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ وَأَصْلَحُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ فى التعبير بـ﴿**ثُمَّ**﴾ يفيد التراخى بين التوبة والغفران؛ لأنه ليس كل توبة توجب الغفران، بل لابد من زمن تعتاد النفس فيه فعل الخير حتى يكون الخير منها حالا من أحوالها.

الأمر الثانى ـ فى قوله تعالى: ﴿**ثُمَّ إِنَّ رَبَّكَ لِلَّذِينَ عَمِلُوا السُّوءَ بِجَهَالَةٍ**﴾ (اللام)تفيد اختصاص الله بهم وأنه قريب منهم.

وإن فى ذلك تشجيعا للتوبة لمن يقعون فى معصية، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ... (٥٣)**﴾ [الزمر] وقال تعالى: ﴿**غَافِرِ الذَّنبِ وَقَابِلِ التَّوْبِ ...(٣)**﴾ [غافر].

الأمر الثالث ـ فى قوله تعالى: ﴿**إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ ذكر البعدية فى هذه الحال فيه معنى الفورية، وأن الله يحب توبة عبده ليغفر له، فإن الله يحب التوبة ويحب المغفرة.

وقد ذكر الله بعد ذلك أبا الأنبياء إبراهيم لأنه أبو العرب وعزهم، ويعيشون ببركة دعائه، ولأنه تواب أواه حليم، فقال سبحانه:

﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٠)**﴾.

﴿أُمَّةً﴾ إما أن تكون بمعنى إمام، أى أنه عليه السلام كان إمام الموحدين المقتدى بهم أو مذهبا متبعا، كقول الله تعالى: ﴿... **إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ** (٢٣)﴾ [الزخرف].

وفسره الزمخشرى بأنه وحده أمة كأنه جماعة جمعت الفضائل كلها، وقد قال فى ذلك: ﴿**إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً**﴾ لكماله واستجماعه فضائل لا تكاد توجد إلا متفرقة فى أشخاص كثيرة، كقوله:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم فى واحد

وهو رئيس الموحدين وقدوة المحققين الذى جادل فى المشركين، وأبطل مذاهبهم الزائفة بالحجج الدامغة، وهذا وجه وقال الزمخشرى: والثانى أن يكون أمة بمعنى مأموم أى يؤمه الناس ليأخذوا منه الخير، أو بمعنى مؤتم كأمة كالرُحْلة والنخبة وما أشبه ذلك مما جاء من فُعله بمعنى مفعول، فيكون مثل قوله تعالى: ﴿... **إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا** ... (١٢٤)﴾ [البقرة] ويروى الشعبى عن نوفل الأشجعى عن ابن مسعود أنه قال: إن معاذًا كان أمة قانتا لله، فقلت: غلطت إنما هو إبراهيم، فقال: الأمة الذى يعلم الخير، والقانت المطيع لله ورسوله وكان معاذ كذلك. وعن عمر رضى الله عنه أنه قال حين قيل له استخلف: لو كان أبو عبيدة حيا لاستخلفته، ولو كان معاذ حيا لاستخلفته، ولو كان سالم حيا لاستخلفته، فإنى سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**أبو عبيدة أمين هذه الأمة، ومعاذ أمة قانتا لله ليس بينه وبين الله يوم القيامة إلا المرسلون وسالم شديد الحب لله لو كان لا يخاف الله لم يعصه**»، وهو ذلك المعنى أى كان إماما فى الدين؛ لأن الأئمة معلمو الخير.

ونقول: إن الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشرى يصح أن يرادا معا، فهو فى ذاته أمة لأنه جامع لكل صفات الكمال البشرى، ومستجمع لكل أسباب الرفعة عند الله، وهو مع ذلك إمام يؤتم ويقصد إذ هو إمام الموحدين والله أعلم؛ ولذلك عقب ذكره بتزييف مذاهب المشركين من الشرك والطعن والنبوة، وتحريم ما أحله الله، ولأنه كان وحده أمة موحِّدا، وكان سائر الناس مشركا.

هذا هو الوصف الأول لإبراهيم عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة وأتم التسليم، والوصف الثانى: أنه قانت لله أى خاضع مطيع مسلم وجهه لله تعالى، والوصف الثالث: أنه كان ﴿حَنِيفًا﴾، أى طاهرا نقيا فى نفسه وقلبه مائلا للحق أى متجها بكل نفسه إلى الحق لا ينحرف إلى الباطل، الوصف الرابع: وهو وصف سلبى ناف عنه الشرك؛ ولذا قال: ﴿وَلَمْ يَكُ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾، الوصف الخامس إيجابى، فقال: ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ (١٢١)﴾.

كان الذين يدَّعون الانتساب إليه فى ملته ويقولون إنهم على دين إبراهيم وحنيفيته، يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها ويكفرون بها، أما إبراهيم عليه السلام فقد ذكر سبحانه أنه كان فى حاله التى تحيط به، وتستغرق كل أفعاله ﴿شَاكِرًا لِأَنْعُمِهِ﴾ وأنعمُ جمع نعمة جمع قلة، وإذا كانت حال شكر دائم لأنعمه القليلة فهو بالأولى شاكر لأنعمه السابغة الكثيرة، وفى هذا دعوة إلى أن يكونوا كأبيهم فى ملته وهديه وحنيفيته السمحة.

وإنه بهذه الصفات العليا من جمعه للفضائل الإنسانية التى كان بها أمة وحده، ومن أنه كان قانتا حنيفا، وشاكرا لأنعمه اصطفاه الله تعالى خليلا، كما قال تعالى: ﴿... وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا (١٢٥)﴾ [النساء]؛ ولذا قال تعالى: ﴿اجْتَبَاهُ﴾، أى اصطفاه نبيا مرسلا، وهداه إلى صراط مستقيم إلى طريق للحق مستقيم، وهو صراط الله تعالى كما قال سبحانه: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ... (١٥٣)﴾ [الأنعام].

وإنه من ثمرة هذه الخصال الكريمة، وأنه هو الذى وفى، وأتى بكل الطاعات أتاه الله تعالى خير الدنيا والآخرة.

فقال تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٢٢)﴾.

الحسنة هى النعمة التى تحسن فيها أمور الدنيا من حياة فاضلة هى الخير كله، وقد أعطى الله تعالى إبراهيم تلك الحياة الحسنة الطيبة فرزقه الولد، بعد حرمان

طويل، ولم يهبه إلا على الكبر، كما قال: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ ... (٣٩)﴾ [إبراهيم]، وشكر النعمة، واختبر بالفداء بذبح ولده فقبل راضيا، ثم فداه رب العالمين بذبح عظيم ووفقه فى بناء الكعبة وأمده بعمر طويل كله كان فى الخير وعمل الصالحات، و«**خير الناس من طال عمره وحسن عمله**»[1]، وجعله أبا الأنبياء وشعر بذلك فى حياته فقد كانوا من أولاده، وقد نالوا منزلة النبوة فكان إسماعيل من ذريته النبى الهاشمى الأمى، ومن ذرية إسحاق كان أنبياء بنى إسرائيل، وجعل الله له كما طلب ﴿...لِسَانَ صِدْقٍ فِي الآخِرِينَ (٨٤)﴾ [الشعراء]، فكان كل أهل الديانات يتولونه، ويعتزون بالنسب إليه وأنه مع النعم التى أنعمها سبحانه وتعالى عليه كان شاكرا لأنعمه.

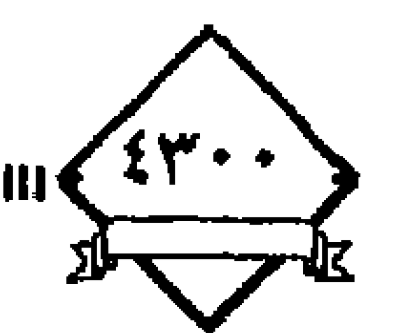
ولذلك حسنت حياته فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ ذكر ذلك الكريم الحنان المنان على أنه خبر لا إيتاء وكأنه نتيجة لما كان منه فى الدنيا ولم يذكر أنه عطاء من الله تعالى، وإن الله له المَنُّ والفضل، ولم يذكر ذلك ليبين سبحانه وتعالى أن الله تعالى يعطى الناس على قدر شكرهم: ﴿... لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ ... (٧)﴾ [إبراهيم]، وأن خير الآخرة ثمرة عمل الدنيا وكله بفضل الله وعطائه ﴿... وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ (٦٧)﴾ [يوسف].

وقد أكد أنه فى الآخرة من الصالحين بالجملة الاسمية، وإن المؤكدة ولام التوكيد، وأنه فى صف الصالحين، والصالحون فى الآخرة هم المقربون الذين يفوزون بنعيم الجنة وينظر إليهم ويرضى عنهم ورضوان من الله أكبر.

وإن ما دعا إليه إبراهيم عليه السلام هو ما يدعو إليه محمد ﷺ؛ ولذا قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٢٣)﴾.

---

(١) أخرجه الترمذى: الزهد - ما جاء فى طول العمر للمؤمن (٢٢٥٢)، وقال أبو عيسى هذا حديث حسن صحيح، وأحمد: أول مسند البصريين (١٩٥١٩)، والدارمى: الرقاق: (٢٦٢٥).



إن المشركين كانوا يفاخرون الناس بأنهم من ذرية إبراهيم، فالنبى يقرهم على هذا الشرف النسبى، والله تعالى يدعوهم إلى اتباع النبى ﷺ لأن الإسلام الذى جاء به النبى ﷺ الأمى هو ملة إبراهيم ودينه، والقرآن وحى الله تعالى هو الذى يدعو إلى اتباع ملة إبراهيم، فأنتم إذ تشركون، وإذ تعاندون النبى ﷺ تعاندون إبراهيم وتكفرون بشرف انتسابكم إليه عليه السلام، وتمسككم بإقامة نسكه، واعتزازكم ببيت الله الحرام الذى بناه، وجعله الله مثابة للناس وأمنا، وقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه ثلاثة أمور بيانية تجب الإشارة إليها:

الأمر الأول ـ فى قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا﴾ فيه أن ما يدعوكم إليه من عدم الشرك هو وحى من الله باتباع إبراهيم الذى يعتزون به، فذلك الوحى هو مما تفخرون وتعتزون فلا تنافروا الداعى ولا تعادوه، وهو على ملة إبراهيم فسيروا فى مفاخركم باتباعها، وهو مائل عن الشرك غير منحرف إليه.

الأمر الثانى ـ التعبير بـ﴿ثُمَّ﴾ فإن مؤداها أن إيحاء الله لنبيه ﷺ باتباع ملة إبراهيم هو سمو بإبراهيم أعلى من كل ما سبق؛ لأن المؤدى فى كلمة ﴿ثُمَّ﴾ التى تفيد التراخى أنه سما الأمر بإبراهيم أنه علا حتى صار محمد سيد الخلق تابعا له فى ملته، فالتراخى هنا معنوى بالعلو بين مرتبة خاتم النبيين ومرتبة سيدنا إبراهيم، وإنه جده، ولكن محمد فخر نبى عدنان وفخر الإنسانية كلها، أشار إلى ذلك الزمخشرى وقال فى التعليق عليه الناصر أحمد:

و(إنما) تفيد ذلك لأن ﴿ثُمَّ﴾ فى أصل وصفها التراخى المعطوف عليه فى الزمان، ثم استعملت فى تراخيه عنه فى علو المرتبة بحيث يكون المعطوف أعلى مرتبة وأشمخ محلا مما عطف عليه، فكأنه بعد أن عدد مناقب الخليل عليه السلام قال تعالى وها هنا ما هو أعلى من ذلك كله قدرا وأرفع مرتبة، وأبعد رفعة، وهو أن النبى الأمى ﷺ الذى هو سيد البشر متبع ملة إبراهيم مأمور باتباعه بالوحى

متلو أمره بذلك فى القرآن الكريم العظيم، ففى ذلك تعظيم لهما لكن نصيب النبى ﷺ من هذا التعظيم أوفر وأكبر.

الأمر الثالث ـ أن قوله تعالى: ﴿أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ﴾ (أن) هنا بيانية، أى تبين معنى الوحى، فقوله تعالى اتبع ملة إبراهيم تفسير لأوحينا، فهى أمر باتباع ملة إبراهيم.

وقد ختم الله تعالى النص بقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ وهذا تحريض للمشركين على منع الشرك؛ لأن إبراهيم لم يكن مشركا من وقت نشأته غلاما صبيا إلى أن توفى بعد عمر مبارك طويل مديد عليه السلام.

الإشارة إلى اليهود والدعوة بالحكمة

قال الله تعالى:

إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٢٤﴾ ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٢٦﴾ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴿١٢٧﴾ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ ﴿١٢٨﴾

بين الله تعالى حال المشركين من كفرهم، وعنادهم وكفرهم بالنعمة يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها، أشار سبحانه إلى الذين يماثلونهم فى الكفر وإنكار النعمة، وهم يكفرون، وهم اليهود فهم والمشركون أشد الناس بغضا للذين آمنوا، وقد أشار سبحانه إليهم بيوم السبت؛ لأنهم الذين اختصوا بتحريمه وإفراده للعبادة وتحريم الصيد فيه، وفى ذكر المشركين إشارة إلى هذه المماثلة وإلى بيان ما يستقبله النبى ﷺ وأن له أياما منهم كأيام المشركين معه فلتصطبر لهم كما صبر من قبلك من الرسل حتى اليوم. يقول تعالى:

﴿ **إِنَّمَا جُعِلَ السَّبْتُ عَلَى الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ** ﴾.

أى صير السبت مانعا لهم من مزاولة شئون الحياة للذين اختلفوا فيه، أى لليهود الذين اختلفوا فيه، والاختلاف أمارة أن فيهم من لم يذعنوا للحق ويؤمنوا، فإنه حيث كان الاختلاف كان الذين يلوون ألسنتهم بالقول من غير إذعان للحق والإيمان، فإن الإيمان يجعل النفوس تقر وتطمئن ولا تنازع ولا تلاحى.

منعوا من الصيد فى يوم السبت، وابتلاهم الله بكثرة السمك فيه، فيوم يسبتون يأتيهم الصيد، ويوم لا يسبتون لا يأتيهم، كما قال تعالى: ﴿ **وَاسْأَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ الَّتِي كَانَتْ حَاضِرَةَ الْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِي السَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لا يَسْبِتُونَ لا تَأْتِيهِمْ كَذَلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ (١٦٣)** ﴾ [الأعراف] فمن صبر على البلاء وهم قليلون، كما قال الله تعالى فيهم: ﴿ ... **مِّنْهُمْ أُمَّةٌ مُّقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ (٦٦)** ﴾ [المائدة] وكثيرون تمردوا واختلفوا فى تمردهم فمنهم من أعمل الحيلة وفتح قنوات يأوى إليها السمك فى يوم سبتهم ليأخذوها يوم لا يسبتون، ومنهم من تمرد كليا، ولم يطع من غير محاولة التحايل.

هذا اختلافهم فى يوم السبت بين صابر لابتلاء الله، ومتمرد عليه، ومتحايل كأنما يخدع الله، وهو معقول فى ذاته ومتفق مع طبائع اليهود المادية الذين يأخذون الأحكام بظاهر من القول والعمل، ويكفرون بالحق فى لبابه وصميمه.

وقد قيل إن اختلافهم كان عندما أمرهم موسى بأن يكون يوم الانفراد للعبادة والامتناع عن الصيد يوم الجمعة فأبوا إلا أن يكون يوم السبت، يروى فى الصحيحين عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «**نحن الآخرون السابقون يوم القيامة بيد أنهم أوتوا الكتاب من قبلنا، ثم هذا يومهم الذى فرض عليهم فاختلفوا فيه، فهدانا الله، فالناس لنا فيه تبع، اليهود غدا والنصارى بعد غد**»[1]، وإنا نميل إلى الله، ولا نخالف السنة.

ثم ختم الله سبحانه وتعالى الآية الكريمة بقوله: ﴿**وَإِنَّ رَبَّكَ لَيَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾ وإن الله رب الأنبياء ورب محمد، ورب الوجود ﴿**لَيَحْكُمُ**﴾، (اللام) فى خبر إن، و﴿**لَيَحْكُمُ**﴾، أى يفصل وهو خير الفاصلين، وذكر ﴿**رَبَّكَ**﴾ فى هذا المقام للدلالة على عالم محيط، فحكمه هو الفيصل لعلمه وقدرته وإحاطته بكل شىء علما، وموضوع الحكم قال سبحانه وتعالى فيه: ﴿**فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ**﴾، أى ما كانوا يختلفون فيه بشكل عام، فقد اختلفوا اختلافا كثيرا، فاختلفوا فى عبادة العجل، واختلفوا بين (فروشيم)، أى مفسرين وصدوقيين، ومفوضين، واختلفوا على موسى ومن جاء بعده من الأنبياء، ولا يزالون مختلفين، وهم بعيدون عن رحمة الله تعالى.

بعد أن ذكر حال اليهود، وأشار إلى عنادهم، وفصل القول فى حال المشركين وإيذائهم أمر الله رسوله أن يستمر فى دعوته لا يألوا، فهو مكلَّف بالتبليغ مهما تكن مناوأة المناوئين، فقال تعالت قدرته:

﴿**ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ (١٢٥)**﴾.

صدع النبى ﷺ بأمر ربه بعد أن أنذر عشيرته وعمت دعوته ربوع البطحاء، وتجاوبت أصداؤها فى أرض الجزيرة العربية، وصار الناس يتعرفون أمر هذه

---

(١) رواه البخارى: الجمعة - فرض الجمعة (٨٢٧)، ومسلم: الجمعة- هداية هذه الأمة ليوم الجمعة (١٤١٢)، من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

الدعوة، وتجردت قريش مناوئة بكل مما أوتيت من قوة آذت الضعفاء وفتنتهم عن دينهم وهاجر إلى الحبشة من هاجر فرارا بدينه وحماية ليقينه، فهل يضعف ذلك من ندائه بقوة الحق والإيمان، وهل يخرجه ذلك عن حد الحكمة، بل إنه يستمر هاديا مرشدا؛ ولذا جاء أمر الله بأن يستمر فى دعوته بالحكمة والموعظة ولا يخرجه ما يفعلون إلي غير الحكمة، فقال تعالى: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ ادع مبلغا رسالة ربك ومتبعا سبله وهدايته إلى سبيل ربك، وسبيل الله هو الصراط المستقيم وهو التوحيد وشريعته التى لا عوج فيها ولا أمتَ بل وهو سبيل الحق الهادى المرشد بالحكمة والموعظة، والحكمة هى القول المحكم الذى يشتمل على الدليل الهادى والبرهان القاطع، والموعظة هى بيان العبر، وضرب الأمثال بما وقع للماضين، وهى المثلات التى وقعت للناس، والموعظة تشمل هذا وتشمل بيان منافعهم فى إجابة دعوة الله، والمضار التى تنزل بهم إن أعرضوا وضلوا عن سواء السبيل.

وبيان الفرق بين الحكمة والموعظة أن الحكمة ذكر الأدلة على التوحيد التى لا يفهمها إلا الراشدون الذين يدركون الدليل ومقدماته، والموعظة ذكر عواقب الضلال من الحوادث الماضية التى وقعت بالضالين المضلين، والقرآن الكريم قد اشتمل على الحكمة والموعظة، ففيه بيان آيات الله فى الكون من خلق السموات والأرض والشمس والقمر والنجوم المسخرات بأمره وإنزال الماء وإنبات النبات وفلق الحب والنوى، فهذا كله من الحكمة، وفيه قصص الأمم السابقة وما نزل بالعصاة من خسف وزلزال وريح صرصر عاتية، وهذا من الموعظة الحسنة؛ ولذا قال بعض المفسرين ﴿بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾ القرآن لأنه يشتمل عليها، ووصفت الموعظة بالحسنة لسهولة قبولها، أو يتخير الرسول أسهلها على النفس، وأحسنها توصيلا للحق الله الهادى إلى سبيل الرشاد.

أمره سبحانه أن يدعوهم بالحكمة والموعظة وأن يجادلهم بالتى هى أحسن فقال تعالى: ﴿وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾، أى بالطريقة التى هى أحسن فى التوصيل إلى الإقناع، فإن لم يكن إقناع فتقريب، فإن لم يكن تقريب لا يكن

تنفير، فهو يبين لهم الحق فى غير مخاشنة وإن خاشنوه، وفى غير غضب وإن غاضبوه، فالنبى لا يغضب ولكن يهدى فلا يفجؤهم بما لا يحبون، بل يأتيهم بالحق مما يحبون مادام لم يكن باطلا، ولا يكون جافيا فى قول أو خلق، ولا يكون غليظا بادى الغلظة، بل يكون ودودا بادى المودة، من غير أن يكون مداهنا فى حق، فإن المشركين يودون أن يكون مداهنا فى الحق كما قال تعالى: ﴿ وَدُّوا لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ (٩) ﴾ [القلم].

﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

أمر الله نبيه بأن يبذل غاية الجهد فى الدعوة من غير مغاضبة بل بالمودة والملاينة والرفق فى القول والعمل، والمجادلة من غير مشاحنة ولا مخاصمة، بحيث يكونون فى جانب، وهو فى جانب، ولا يظن أنه بذلك يتأكد إيمانهم فإن منهم من يضل، ومنهم المهتدى، وعليه التبليغ، وليس عليه الهداية؛ ولذا قال: ﴿ ... فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ ... (٤٠) ﴾ [الرعد]، وقال فى هذه الآية: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾ هذا النص السامى كأنه جواب عن استفهام مقدر فى القول: أبعد الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة والجدل بالتى هى أحسن يكون الإيمان لا محالة؟، فأجاب سبحانه: فيهم من كتب عليه الضلال وفيهم المهتدى.

﴿ إِنَّ رَبَّكَ ﴾ الذى يعلم كل شىء لأنه رب الإنسان والوجود ﴿ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ﴾، أى بمن سلك سبيل الضلالة وأوغل فضل ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

ونقول: إن أفعل التفضيل ليس على بابه؛ لأنه لا مفاضلة بين علم الله وعلم أحد، وإنما الذى يقصد من أفعل التفضيل أن علمه بلغ أقصى درجات العلم فلا علم فوق علمه سبحانه.

ويلاحظ أنه يعبر عن الضالين بالفعل، ﴿ضَلَّ﴾، وعن الذين هداهم الله تعالى ﴿ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾؛ للإشارة إلى أن الضلال مخالف للفطرة حادث عارض لها،

ولذا عبر عنه بالفعل الماضى، وأما الهداية فهى الفطرة، ولذا عبر عنها بالوصف الذى يدل على الدوام، فقال: ﴿ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴾.

وإذا لم تكن هداية لا تكون مغاضبة، بل يكون عقاب إن اعتدوا فقال تعالى:

﴿ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) ﴾.

هذه السورة سورة النحل مكية كلها، وقيل إن ثلاث الآيات الأخيرة منها، وهى هذه الآية، واللتان تليانها مدنيات، وهى بالمدنيات أشبه؛ لأن المسلمين لم يملكوا القدرة على العقاب إلا بعد الهجرة، وبعد أن أذن لهم بالقتال فى قوله تعالى: ﴿ أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ (٣٩) الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠) ﴾ [الحج].

فبعد الهجرة والإذن بالقتال يكون للعقاب موضع؛ إذ كانت لهم القدرة، ويكون معنى الآية على هذا، وإن عوقبتم أى آذوكم على إيمانكم، وهاجموكم فى دياركم وأموالكم، أو أردتم أن تأخذوا منهم حقكم على إيذاء آذوه فعاقبوهم بمثل ما آذوكم، وتسمية فعلكم عقابا هو من قبيل المشاكلة اللفظية، فما كان منهم لم يكن عقابا بل كان إيذاء ابتداء اعتدوا به عليكم كما سمى رد الاعتداء من قبيل المشاكلة اللفظية فى قوله تعالى: ﴿ ... فَمَنِ اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَاعْتَدُوا عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا اعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٩٤) ﴾ [البقرة] فما كان دفع الاعتداء اعتداء إنما كان دفع الاعتداء انتصافا.

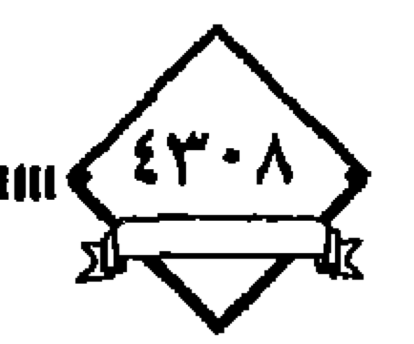
وما موضع الصبر فى هذه الحال، وقد أقسم الله تعالى بأنه ﴿ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ﴾، ونقول: إن موضعه فى أنه لا يجهز على جريح، ولا يقتل النساء ولا الذرية، ولا تنتهك الفضيلة، وفى ألا يبادروهم بالقتال، ولا ينتهكوا الحرمات ولا

يمثلوا بالقتلى كما يمثلون، روى أنه فى غزوة أحد قتل سيد الشهداء حمزة بن عبد المطلب، وقد ذكر الرواة فى السيرة أن المشركين مثلوا بالمسلمين يوم أحد.. بقروا بطونهم، وقطعوا مذاكيرهم، ما تركوا أحدًا إلا مثلوا به حتى حمزة عم رسول الله ﷺ فقد مثلوا به، فرآه مبقور البطن، فقال: «**أما والذى أحلف به لئن أظفرنى الله بهم لأمثلن بسبعين مكانك**»، ولكن أمر بالنهى عن المثلة.

وموضع الصبر أيضا فى أنه إذا تمكن منهم المسلمون يعرضون عليهم الإسلام، كما يعرضونه قبل القتال، كما قال النبى ﷺ عندما أرسل معاذ بن جبل وعلى بن أبى طالب إلى اليمن كل بمفرده: «**لا تقاتلهم حتى تعرض عليهم الإسلام، فإن أسلموا فخذ من أغنيائهم صدقة وردها على فقرائهم، فإن لم يسلموا فلا تقاتلوهم حتى يقاتلوكم، فإن قاتلوكم فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم رجلا فإن قتلوا منكم رجلا، فقولوا لهم: أما كان خيرا من هذا أن تقولوا لا إله إلا الله**».

ونرى أن الصبر كان له موضع ليس فى الجهاد بل فى تحمل أذى المشركين عسى أن يهتدوا، هذا إذا كانت الآيات الثلاث مدنية، أما إذا كانت مكية فكيف يكون مبادلة العقاب بعقاب مثله، والمسلمون لم يكن لهم قوة بل كانوا يفرون بدينهم مهاجرين أحيانا ومتحملين أبلغ الأذى أحيانا ومنهم من يُكْرَه وقلبه مطمئن بالإيمان، والجواب عن ذلك أن المسلمين لم يكونوا جميعا مستضعفين، بل كان فيهم أقوياء وإن كانوا نادرين، كعمر بن الخطاب وحمزة بن عبد المطلب فإنه عندما أسلم عمر ذهب إلى البيت، ونكل بكل من كان فيه حتى إنه كان فيه رجل من المشركين كان قد آذى أبا بكر الصديق فجاء إليه عمر وصرعه، وجلس عليه وأراد أن يفقأ عينيه فاستغاث بالمشركين فما استطاعوا إلى عمر سبيلا وهو باركٌ عليه كما يبرك الفحل، وكان قوى الجسم مديد القامة عملاقا.

ويقول على بن أبى طالب فى هجرة عمر: كان المسلمون يهاجرون خفية إلا عمر فإنه عندما هاجر لبس لأْمته وشد عنزته ونادى: شاهت هذه الوجوه، وأرغم



الله هذه المغاطس، من أراد منكم أن تثكله أمه، ويـيتم ولده وترمل امرأته فليلقنى وراء هذا الوادى.

وما أظن أنهم كانوا يستطيعون أن ينالوا من حمزة وأمـثاله، وإلا ذاقوا بدل الكأس أكؤسا، ولكن الصـبر كان خيرا للصابرين، ولكن مـا سبب ذلك؟ السبب أمران:

الأمر الأول ـ أن هؤلاء الأقوياء كـانوا قلة نادرة قد ادخـرهم الله للشديدة، ولو استرسلوا لتكاثفوا عليهم وأبلغوا فى إيذائهم، ولشغلت مكة بهم عن الاستماع لدعوة النبى ﷺ.

الأمر الثانى ـ أن وقت المغالبة بالقوة لم يحن بل كانت المغالبة بالمصابرة ليثير الصبر على الأذى قلوب ذوى المـروءات كما كان يحدث أحـيانا، والنبى ﷺ كان أقوى فى شخصه وهيبتـه من كل هؤلاء، ولكنه لم يفرض هيبته ليدخل الناس فى الإسلام مختارين غير هيابين.

وقد حبب الله تعالى إليـه الصبر فقال: ﴿ **وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ** ﴾ فـأكده سـبحـانه أولا بالقسم، واللام الدالـة عليه، وبـ (لام) القـسم الواقعـة فى جوابه، وبالضـمير (هو)، وبالإظهار فى مـوضع الإضمار للدلالة على أن الصـبر خير فى ذاته لمن يصبرون.

وقد أمر النـبى ﷺ فى عامة أموره وفى دعوتـه، وفيما يلقاه من المـشركين فقـال تعالى: ﴿ **وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧)** ﴾.

أمره الله تعالى بثلاثة أمور:

الأمر الأول ـ الصبر، والصبـر فى الناس ضبط النفس وفى النبى ﷺ تحمل الأذى بصدر رحيب، وقلب مطمـئن ورضا بالتكليف ﴿ **وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ** ﴾، أى إلا بتوفيقه وعونه وهو نعم العون ونعم النصير.

الأمر الثانى ـ ألا يحزن على ما يصيب المؤمنين وكفر الكافرين ﴿ ... **فَلا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَاتٍ** ... (٨) ﴾ [فاطر].

الأمر الثالث ـ ألا يضيق صدره بمكرهم فالرسالة توجب تحمل كل ما يجىء فى سبيل الدعوة، وضيق صدره بما يمكرون بأن يظن أن لمكرهم، أثَّر أى أثر فى دعوته، فالله غالب على أمره.

وختم الله تعالى السورة بقوله تعالت كلماته بأنه مع المؤمنين دائما .

﴿ **إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** (١٢٨) ﴾ .

إن الله مع الذين امتلأت قلوبهم تقوى، وجعلوا بينهم وبين غضب الله وقاية ﴿ **وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ** ﴾، وأكد إحسانهم بالضمير وبالجملة الاسمية، وهو معهم بالصحبة السامية وبالتأييد وبالنصر وبالعزة لهم فى الدنيا والآخرة، والله ولى المؤمنين.

* * *



تمهيد:

سورة الإسراء سورة مكية، وعدد آياتها ١١١ إحدى عشرة ومائة آية، وقد قيل: إنها مكية نزلت بعض آياتها بالمدينة وهى قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً (٨٥)﴾ وقوله تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ لِتَفْتَرِيَ عَلَيْنَا غَيْرَهُ وَإِذًا لاَّتَّخَذُوكَ خَلِيلاً (٧٣)﴾ إلى قوله تعالى: ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا (٨١)﴾ وكذلك قوله تعالى: ﴿قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا (٨٨)﴾.

وقد ابتدئت السورة الكريمة بذكر خبر الإسراء والإشارة إلى المعراج فى قوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١)﴾ وذكر سبحانه أن أهل مكة وبيت المقدس وغيرهم هم ذرية من حملهم الله مع نوح.

ثم بين سبحانه أنه قضى لبنى إسرائيل أن يفسدوا فى الأرض، ففى الأولى يبعث الله لهم قوما أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار، ثم يجعل الله تعالى لأهل الإيمان من أتباع محمد ﷺ من رد الكرَّة عليهم، وأمد الله المؤمنين بأموال وبنين وجعلهم أكثر نفيرا، فإذا جاء وعد المرة الآخرة من فسادهم يدخلون المسجد كما دخلوه أول مرة، وخاطب سبحانه المؤمنين بقوله تعالى: ﴿... لِيَسُوؤُوا وُجُوهَكُمْ وَلِيَدْخُلُوا الْمَسْجِدَ كَمَا دَخَلُوهُ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَلِيُتَبِّرُوا مَا عَلَوْا تَتْبِيرًا (٧)﴾ ويشير سبحانه إلى أن سبب ذلك فساد أحوال المسلمين، وأنهم إن صلحوا صلحت الأمور، فيقول ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يَرْحَمَكُمْ وَإِنْ عُدتُّمْ عُدْنَا وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ

حَصِيراً ﴿٨﴾ ﴾ ويشير سبحانه إلى أن خسارة المسلمين ترجع إلى ترك القرآن، ﴿ إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً ﴿٩﴾ وَأَنَّ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَاباً أَلِيماً ﴿١٠﴾ ﴾ وبين أحوال الإنسان فقال: ﴿ وَيَدْعُ الإِنسَانُ بِالشَّرِّ دُعَاءَهُ بِالْخَيْرِ وَكَانَ الإِنسَانُ عَجُولاً ﴿١١﴾ ﴾.

ويذكِّر الله سبحانه المؤمن المدرك بأنه خالق الليل والنهار ليبتغوا فضلا من ربهم، وليعلموا عدد السنين والحساب، ويذكر الله تعالى الناس بيوم الحساب، وأن كل إنسان يكون معه كتابه قد سجلت فيه حسناته وسيئاته ﴿ مَنِ اهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴾.

ويبين سبحانه أن هلاك الأمم وضعف المسلمين أمام بنى إسرائيل فى جولتهم الأخيرة سببه الترف والتراخى: ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً ﴿١٦﴾ ﴾، وبين الله سبحانه وتعالى بعد ذلك سنته فى القرون الماضية الذين أهلكهم الله سبحانه، ويقرر سبحانه أن ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ الْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُ فِيهَا مَا نَشَاءُ لِمَن نُّرِيدُ ﴾ ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُوراً ﴿١٩﴾ كُلاًّ نُّمِدُّ هَؤُلاءِ وَهَؤُلاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُوراً ﴿٢٠﴾ انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجَاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴿٢١﴾ ﴾ ونهى سبحانه عن عبادة غير الله مع الله ﴿ فَتَقْعُدَ مَذْمُوماً مَّخْذُولاً ﴾.

ويأمرنا سبحانه وتعالى أمرا: ﴿ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلاهُمَا فَلا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلاً كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيراً ﴿٢٤﴾ ﴾، ثم يوصى سبحانه وتعالى بالقرابة كلها، وبالتوسط فى إنفاق المال، ولا ينفقه إلا فى خير، ثم ينهى عن قتل النفس وعن الزنا، وأن قتل النفس يجعل للمولى سلطانا فى طلب الدم، ثم ينهى سبحانه عن أن يقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن حتى يبلغ أشده، ويأمر سبحانه بالوفاء بالعهد وبالوفاء بالكيل والميزان،

﴿ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً ﴾، وأمر سبحانه أن: ألا يَقْفُ الإنسان ما لا علم له به، أو ما لا سبيل إلى العلم، ﴿ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْؤُولاً ﴾.

ويعلم الإنسان الأدب واللياقة حتى لا ينفر الناس منه، ﴿ وَلا تَمْشِ فِي الأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولاً (٣٧) ﴾ وإن ذلك له فى المجتمع عواقب سيئة مكروهة مقطعة لأوصال الجماعة.

وينهى سبحانه عن أن يكون مع الله إله آخر، ويندد بعادات أهل الجاهلية فى كراهيتهم للبنات ﴿ أَفَأَصْفَاكُمْ رَبُّكُم بِالْبَنِينَ وَاتَّخَذَ مِنَ الْمَلائِكَةِ إِنَاثًا إِنَّكُمْ لَتَقُولُونَ قَوْلاً عَظِيمًا (٤٠) ﴾ وقد بين الله تعالى تصريفه سبحانه فى القرآن ليتذكر الناس ولكنه يزيدهم نفورا؛ لأنهم يرون فيه قوة الحق، والمبطل المعاند كلما وضحت الحجة نفر وما اهتدى، ثم يبين سبحانه أنه لو كان معه آلهة كما يقولون لنازعوه سبحانه وتعالى فى عرشه فيفسد الكون.

ثم ذكر سبحانه تسبيح كل ما فى الوجود له، ثم بين سبحانه هداية القرآن وضلال الناس: ﴿ وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا (٤٥) وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَىٰ أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا (٤٦) نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِ إِذْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ وَإِذْ هُمْ نَجْوَىٰ إِذْ يَقُولُ الظَّالِمُونَ إِن تَتَّبِعُونَ إِلاَّ رَجُلاً مَّسْحُورًا (٤٧) انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الأَمْثَالَ فَضَلُّوا فَلا يَسْتَطِيعُونَ سَبِيلاً (٤٨) ﴾ وإن الأمر الذى يشغلهم عن الحق هو كفرهم بالبعث فهم يقولون: ﴿ أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾، فيرد الله تعالى كلام هؤلاء فيقول: ﴿ قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا (٥٠) أَوْ خَلْقًا مِّمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَسَيُنْغِضُونَ إِلَيْكَ رُءُوسَهُمْ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هُوَ قُلْ عَسَىٰ أَن يَكُونَ قَرِيبًا (٥١) ﴾.

وبين سبحانه أن هذا كله من نزغ الشيطان بينهم، وإن ربكم أعلم بكم إن يشأ يرحمكم وإن يشأ يعذبكم، وما أرسلناك (يا محمد) عليهم وكيلا، وقد بين



سبحانه أنه فضَّل بعض النبيين على بعض، وآتى الله داود زبورا، ويبين سبحانه عجز الأوثان عن كشف الضر، ويصف المؤمنين فيقول تعالت كلماته: ﴿ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَىٰ رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ وَيَرْجُونَ رَحْمَتَهُ وَيَخَافُونَ عَذَابَهُ إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ كَانَ مَحْذُورًا (٥٧) ﴾.

ويضرب الله تعالى الأمثال بالقرى التى فسقت عن أمر ربها، فيقول سبحانه: ﴿ وَإِن مِّن قَرْيَةٍ إِلَّا نَحْنُ مُهْلِكُوهَا قَبْلَ يَوْمِ الْقِيَامَةِ أَوْ مُعَذِّبُوهَا عَذَابًا شَدِيدًا كَانَ ذَٰلِكَ فِي الْكِتَابِ مَسْطُورًا (٥٨) ﴾.

طلب المشركون آيات حسية بدل القرآن، فيقول سبحانه: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالْآيَاتِ إِلَّا أَن كَذَّبَ بِهَا الْأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالْآيَاتِ إِلَّا تَخْوِيفًا (٥٩) وَإِذْ قُلْنَا لَكَ إِنَّ رَبَّكَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا الَّتِي أَرَيْنَاكَ إِلَّا فِتْنَةً لِّلنَّاسِ وَالشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِي الْقُرْآنِ وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا (٦٠) ﴾.

ثم يشير سبحانه إلى قصة الخلق والتكوين ويذكر تكريم آدم بالأمر بالسجود له، وموقف إبليس، ويأمره سبحانه بأن يبذل أقصى ما يملك ﴿ وَاسْتَفْزِزْ مَنِ اسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ وَعِدْهُمْ وَمَا يَعِدُهُمُ الشَّيْطَانُ إِلَّا غُرُورًا (٦٤) ﴾ وبين سبحانه أن عباده المؤمنين ليس للشيطان عليهم سلطان، وكفى بربك وكيلا.

ثم بين سبحانه نعمه فى البر والبحر وكشف الضر إذ يستغيثون به، فإذا كشف الضر عنهم أعرضوا وكان الإنسان كفورا.

وأشار سبحانه إلى قدرته القاهرة: ﴿ أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا (٦٨) أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَىٰ فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِّنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُم بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْنَا بِهِ تَبِيعًا (٦٩) ﴾ أى مطالبا ينتصر لكم، ولقد ذكر بعد ذلك تكريم الله تعالى لبنى آدم وذكر أن من تكريمهم أن يبعثوا، ﴿ يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُولَٰئِكَ

يقرءون كتابهم ولا يظلمون فتيلا (٧١) ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا (٧٢) ﴾.

ولقد ذكر سبحانه وتعالى محادّة المشركين أن يفتنوا محمدا ﷺ عن دينه، وأنه لولا أن الله ثبته لركن إليهم، ﴿ ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا (٧٤) إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا (٧٥) ﴾.

ثم أشار سبحانه إلى أن المشركين يستفزون محمدا وأتباعه ليخرجوه ﴿ وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلا ﴾ ويأمره سبحانه بإقامة الصلاة في أوقاتها فيقول: ﴿ أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا (٧٨) ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا (٧٩) وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيرا (٨٠) وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا (٨١) ﴾.

وبعد ذلك ذكر نزول القرآن وأنه يكون تنزيلا وقتا بعد آخر، ﴿ وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا (٨٢) ﴾.

وبين سبحانه وتعالى طبيعة الإنسان غير المؤمن، حيث يعرض عن الله عند النعمة ﴿ وإذا مسه الشر كان يئوسا ﴾ وكل يعمل على شاكلته ﴿ ولئن شئنا لنذهبن بالذي أوحينا إليك ثم لا تجد لك به علينا وكيلا (٨٦) إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيرا (٨٧) ﴾ وبعد ذلك بين القرآن وأن الله سبحانه وتعالى يتحدى به الخليقة إلى يوم القيامة.

ولقد ذكر سبحانه أنهم طلبوا آيات أخرى حسية، طلبوا أن تفجّر لهم الأرض ينابيع، وأن تكون لهم جنات من نخيل وعنب، أو أن يسقط السماء عليهم كسفا، أو يأتي بالله والملائكة قبيلا، أو يكون له بيت من زخرف، أو يرقى في السماء ويرسل إليهم كتابا من السماء.

وكلها آيات مادية حسية، والنبى ﷺ يجيبهم ﴿ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَرًا رَّسُولاً ﴾.

ولقد كان المشركون يعجبون ويقولون أبعث الله بشرا رسولا! فيقول سبحانه: ﴿ قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَّسُولاً (٩٥) ﴾ ويأمر النبى ﷺ أن يجعل الله شهيدا بينه وبينهم.

وإن من يهديه الله فهو المهتد ومن يضلل الله فلن تجد له أولياء من دونه، ﴿ وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ عُمْيًا وَبُكْمًا وَصُمًّا مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيرًا (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا (٩٨) ﴾.

ثم يذكر سبحانه أنه خلق السموات والأرض فهو قادر على أن يخلق مثلهم، ﴿ .. وَجَعَلَ لَهُمْ أَجَلاً لاَّ رَيْبَ فِيهِ فَأَبَى الظَّالِمُونَ إِلاَّ كُفُورًا (٩٩) قُل لَّوْ أَنتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الإِنفَاقِ وَكَانَ الإِنسَانُ قَتُورًا (١٠٠) ﴾.

وإن المشركين يلحون فى أن يأتيهم الرسول بآيات حسية، ولا يقتنعون بالقرآن معجزة مع أنه تحداهم أن يأتوا بسورة من مثله، فذكر الله تعالى أن الله آتى موسى تسع آيات بينات ﴿ .. فَاسْأَلْ بَنِي إِسْرَائِيلَ إِذْ جَاءَهُمْ فَقَالَ لَهُ فِرْعَوْنُ إِنِّي لأَظُنُّكَ يَا مُوسَىٰ مَسْحُورًا (١٠١) قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَؤُلاءِ إِلاَّ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بَصَائِرَ وَإِنِّي لأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا (١٠٢) ﴾ فهم مع هذه الآيات التسع لم يؤمنوا، فأخرجهم من الأرض فأغرقه الله ومن معه جميعا.

وقد بين سبحانه وتعالى مقام القرآن والرسالة المحمدية، فقال عز من قائل: ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (١٠٥) وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنزِيلاً (١٠٦) ﴾ وأنه لا يغض من شأن القرآن إلا من به

أشرك: ﴿قُلْ آمنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا (١٠٧) وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً (١٠٨) وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا (١٠٩)﴾.

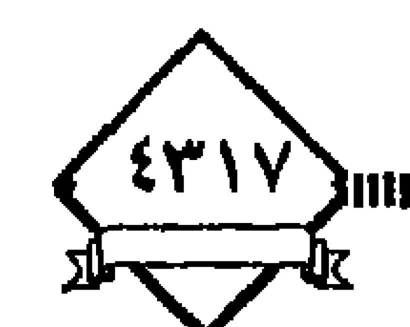
وكان المشركون يقولون لا نعرف الرحمن، فقال لهم رب العالمين: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ وَلا تَجْهَرْ بِصَلاتِكَ وَلا تُخَافِتْ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلاً (١١٠) وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُن لَّهُ وَلِيٌّ مِّنَ الذُّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا (١١١)﴾.

معانى السورة الكريمة

قال الله تعالى:

سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ۚ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ (١) وَآتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلَّا تَتَّخِذُوا مِن دُونِي وَكِيلًا (٢) ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ ۚ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا (٣)

جهدت نفس النبى ﷺ ولم ييأس من رحمة الله عندما ماتت زوجه المواسية الحانية التى كان يسكن إليها بعد لغوب الحياة ومعاندة المشركين وإيذائهم له وللمؤمنين فهى التى واسته عندما نزل الوحى، وذهب إليها يرجف فؤاده، فقالت له: إنك تكرم الضيف وتحمل الكل، وتعين على نوائب الدهر، ولن يضيعك الله أبدا، وذهبت برسول الله ﷺ إلى ابن عمها الذى كان على علم بالكتاب فقال له: إن هذا هو الناموس الذى نزل على موسى من قبل، ليتنى أكون فيها جذعا إذ



يخرجك قومك فقال ﷺ: «**أو مخرجى هم**» فقال: ما أتى قوم بمثل ما أوتيت إلا أخرجوه(١).

وفى سنة وفاتها توفى الحامى الحانى أبو طالب الذى كان درئة(٢) من قريش، فسمى النبى ﷺ ذلك العام عام الحزن.

وذهب إلى الطائف يعلن الدعوة فى ثقيف عسى أن يكون منهم النصراء المستجيبون ولكنهم ردوه ردا قبيحا وأحس أنه فقد المعين، فقال داعيا ربه: «**اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس يا أرحم الراحمين أنت رب المستضعفين وأنت ربى، إلى من تكلنى إلى بعيد يتجهمنى أم إلى عدو ملكته أمرى إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى إلا أن عافيتك أوسع لى، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات وصلح عليه أمر الدنيا والآخرة أن ينزل بى سخطك أو يحل علىَّ غضبك، لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك**».

استجاب الله تعالى لنبيه الكريم فأعطاه القوة بالبراهين الحسية التى لا يمارى فيها إلا المثبورون، فشق له القمر ورآه السارُون(٣) فماروا وقالوا سحر مستمر مع أنه رؤى رأى العين، وأعطاه الله قوة الحيلة فتحايل للدخول إلى مكة فى جوار بعض القرشيين، فدخلها بين أولاد من نزل فى جواره، وقد خرجوا ليناصروه، وإذا كان فقد العم البار الحانى، والزوجة المؤنسة الواسية الحانية فإن الله تعالى أشعره بأن الله معه ومؤنسه، وكان ذلك بالإسراء والمعراج، فآنسه الله تعالى فى وحشته.

---

(١) أخرجه البخارى: بدء الوحى- بدء الوحى(٣)، ومسلم: الإيمان- بدء الوحى(٢٣١).

(٢) الدَّرِيئَةُ: الحَلْقَةُ يُتَعَلَّمُ الطَّعْنُ والرَّمْىُ عليها، وكُلُّ ما استُتِرَ به من الصَّيْدِ ليخدع. القاموس المحيط(درأ)، والدرئة كذلك.

(٣) سرى: سار ليلا، والسارون: السائرون بليل. الصحاح.

قال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ لَيْلاً مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ (سبحان): اسم فى معنى المصدر، وهو غير متصرف فلا تجرى عليه وجوه الإعراب وليس له فعل، وقد يعده بعض العلماء مصدرا من سبح يسبح تسبيحا وسبحانا، ومعنى هذه اللغة تنزيه الله تعالى وتقديسه وبراءته من كل نقص لا يليق بالذات العلية المكرمة، وقد روى أن طلحة بن عبيد الله أحد العشرة المبشرين بالجنة سأل رسول الله ﷺ ما معنى سبحان الله فقال: «تنزيه الله من كل سوء»، وصدرت الآية أو السورة بالتسبيح وتنزيه الله تعالى عن كل عيب؛ لأنه سيكون فيها إسراء ومعراج، واتجاه إلى الله واستشراف بالملأ الأعلى فكان لا بد من الابتداء بما يدل على التنزيه عن التجسيم والأغراض التى لا تليق بذاته الكريمة، و(سبحان) منصوبة على أنها مفعول مطلق؛ لأنه فى معنى المصدر أو مصدر كما ذكر.

وأسرى: أى سار ليلا، فالإسراء لا يكون إلا بالليل، وذكر (ليلا) للتبعيض فكان التنكير للدلالة على البعضية، فالإسراء كان فى بعض الليل لا فى الليل كله، فما استغرق الليل كله، بل كان فى بعض، وكان ذكر ليلا للإشارة إلى أنه حين يكون السير ليس سهلا، إذ إن الانتقال إلى مكان بعيد لا يكون ليلا، بل يكون نهارا، ولا يكون بعض الليل بل يكون بعض النهار، فذكر «ليلا»[1] للدلالة على موضع الغرابة، أنه كان بأقصى السرعة، وكان ليلا.

وذكر «عبده» فى قوله تعالى ﴿أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ﴾، للإشارة إلى قربه من نبيه فقد خلص له، ولم يكن بينه وبينه حجاب إلا العبودية، وأضافه إليه سبحانه لمعنى الاختصاص وأنه صار خالصا لله سبحانه وتعالى، وفى ذلك إشارة إلى معنى دعائه ﷺ: «إن لم يكن بك غضب علىَّ فلا أبالى» فقال له ربه: أنت عبدى، أى أنت لى خالصا.

وقد عين ابتداء السير، وانتهاءه فقال سبحانه: ﴿مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَا﴾ فالابتداء من المسجد الحرام لا من مكة كلها، وصحت الرواية

عن النبى ﷺ بأنه أسرى به من الحِجْر فى المسجد[1]، وقيل إنه أسرى به من بيت أم هانئ بنت أبى طالب، ونحن نرى أن الأولى أن يكون ابتداء الإسراء من الحجر، لصحة الرواية ولأنها التى تتفق مع النص؛ لأن النص ذكر أنه من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، ومكة وإن كانت حرما آمنا لأجل المسجد الحرام، فليست كلها الكعبة ولا المسجد الحرام.

والمسجد الأقصى هو بيت المقدس، قيل إن الذى بناه يعقوب بن إسحاق عليهما السلام، ومهما يكن تاريخ بنائه فهو مسجد مقدس كما قال ﷺ: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: البيت الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدى هذا**»[2].

وهو إحدى القبلتين - أولهما- اتجه إليه النبى ﷺ فى مكة، فقد كان فى صلاته يصلى متجها إليه غير مستدبر الكعبة، ولما هاجر استمر يتجه إلى بيت المقدس وحده نحو ستة عشر شهرا[3].

وكان الإسراء قبل الهجرة بعام، وبعد موت أم المؤمنين خديجة، وعمه أبى طالب، وقد ذكرت فى أول القول ما كان للإسراء من أثر نفسى فى التسرية عن النبى ﷺ.

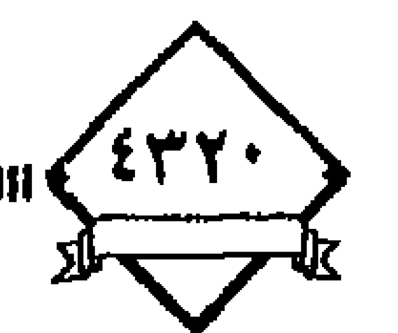
وقد ذكر الله تعالى بعد المسجد الأقصى وصفا كريما له فقال: ﴿**بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾، ففيه آثار النبيين من أولاد إسحاق ﷺ وفيه كانت الإمامة الكبرى بأرواحهم، وقد قال الزمخشرى فى قوله تعالى: ﴿**بَارَكْنَا حَوْلَهُ**﴾ يريد سبحانه بركات الدين والدنيا؛ لأنه متعبد الأنبياء من وقت موسى، ومهبط الوحى، وهو محفوف بالأنهار الجارية والأشجار المثمرة، وكانت بركته أيضا فى أنه إلى هذا الوقت كان قبلة المسلمين.

---

(١) عن أَنَس بْنَ مَالِكٍ يُحَدِّثُنَا عَنْ لَيْلَةِ أُسْرِيَ بِالنَّبِيِّ ﷺ مِنْ مَسْجِدِ الْكَعْبَةِ. الحديث. رواه البخارى: المناقب- تنام عينه(٣٠٥)

(٢) متفق عليه، وقد سبق تخريجه، ورواه بهذا اللفظ البخارى: الصوم- صوم يوم النحر(١٨٥٨) عن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه.

(٣) متفق عليه، سبق تخريجه.



وقوله تعالى: ﴿ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا ﴾ أي يُرى رسول الله ﷺ من آيات ربه الكبرى ومن إمامته لأرواح الأنبياء أو للأنبياء أنفسهم قد أحضرهم الله تعالى له بأجسادهم، كما يبعثهم يوم البعث بأجسادهم، وتلك آيات من آيات الله تعالى، وعرج به إلى السموات العلا، كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَىٰ ۝٥ ذُو مِرَّةٍ فَاسْتَوَىٰ ۝٦ وَهُوَ بِالْأُفُقِ الْأَعْلَىٰ ۝٧ ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ ۝٨ فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ ۝٩ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ۝١٠ مَا كَذَبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَىٰ ۝١١ أَفَتُمَارُونَهُ عَلَىٰ مَا يَرَىٰ ۝١٢ وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ ۝١٣ عِندَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَىٰ ۝١٤ عِندَهَا جَنَّةُ الْمَأْوَىٰ ۝١٥ إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَىٰ ۝١٦ مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ۝١٧ لَقَدْ رَأَىٰ مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَىٰ ۝١٨﴾.

هذه آيات المعراج لا نتعجل الكلام في ذكر معانيها، فنؤجل ذلك إلى الكلام في معاني هذه السورة التي تصور الرحلة النبوية إلى السموات العلا سواء أكانت هذه الرحلة بالروح فقط أم بالروح والجسد، والله على كل شيء قدير، بقي أن نتكلم في الإسراء والمعراج أكان بالروح أم بالجسد والروح؟.

اتفق علماء السلف على أن الإسراء كان بالروح والجسد، وأنه كان ليلا، والنبي ﷺ مستيقظ يرى ويسمع، ولذا وصف عير قريش وذكر أنه يتقدمها جمل أورق.

ولم يخالف في ذلك إلا ما روى عن عائشة وعن معاوية من الذين لقوا رسول الله ﷺ، ونقول: إن عائشة رضي الله عنها ما كانت زُفت إلى رسول الله ﷺ وما كانت في سن تسمح لها بالرواية، إلا أن تكون قد روت ذلك عن غيرها، ولم تذكر من روت عنه، ومهما يكن فهي الصّدّيقة بنت الصّدّيق، ولكننا لا نأخذ برأيها وقد كان رأيا لنا أن نخالفه، وأما معاوية فماله ولهذا وقد كان هو وأبوه ممن كذبوا النبي ﷺ في أصل الإسراء، فلم يكن وقت الإسراء إلا مشركا ككل المشركين.

